14 me Année No. 691

Lundi—30—9—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
أحمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
ص
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

السنة الرابعة عشرة « القاهرة فى يوم الإثنين ٥ ذو القعدة سنة ١٣٦٥ — ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٤٦ » العــدد ٦٩١

الآراء الخــــاطفة . . .

للأســـتاذ عباس محمود العقاد

الحركات الخاطفة معروفة فى ميادين الأدب كما عرفت قديماً وحديثاً فى ميادين الحروب

وهى تنجح فى هـذه الميادين كما تنجح فى تلك الميادين ، فليست الأناة لازمة فى كل عمل ، وليس البطء فى التفكير مطلوباً من كل أحد :

وربمـا فات قوماً جل أمرهم من التأنى وكان الأمر لو عجلوا
كما قيل بحق وصواب

ولـكن الحركات الخاطفة قد تنهزم فى ميادين الأدب كما تنهزم فى ميادين القتال ، لأنها لا تصلح لـكل موضع ولا تنتصر على جميع الأعداء

وعيبها الأكبر فى الآراء الأدبية أنها سريعة الرواج سريعة الإقناع ، وأنها تجتذب إليها « على وجه السرعة » أولئك الذين ينفرون من التمحيص لأنهم لا يستطيعونه أو لا يجدون له متسعاً من الفراغ ، فيقبلون كل ما قيل ويصدقون فى معظم الأحوال ما هو حقيق بالتـكذيب والإعراض

ومن هذه الآراء الخاطفة آراء بعض الناقدين المحدثين فى أدب الصحافة أو فيما يكتبه الأدباء فى الصحف والمجلات . فعند هؤلاء الناقدين المحدثين أن الأدب لا ينبغى أن يكتب للصحف والمجلات ، وأنه لا يكتب فيها شيئاً يستحق أن يعيش إلى غير الأجل الموقوت الذى يقدر لأخبار الصـحافة وحوادث اليوم أو الشهر أو العام على أبعد الآجال

وفى هذا الرأى آفة الآراء الخاطفة جماء

فهو صحيح وغير صحيح ، أو هو لا يقبل كله ولا يرفض كله ، ولـكنه يروج بصوابه وخطئه عنـد من « يخطفون » الآراء ويقابلون عجلة التفـكير بعجلة الإصغاء

فهذا الرأى صحيح إذا كانت كلمة « الـكتابة » تشمل التفكير والتجربة والدراسة والمراجعة وتدوين الـكلام على الأوراق

فالـكاتب الذى يفـكر ويجرب ويدرس ويراجع فى الساعة التى يدون فيها كلامه على الورق يخطئ فى حق الأدب وفى حق نفسه ولا يستحق البقاء بعـد طى الصحيفة التى يكتب فيها بساعات أو أيام

ولـكنه إذا كان يودع الصحيفة ثمرة التفـكير الصحيح والتجربة الطويلة والدرس الدقيق والمراجعة المتوالية ، فـا هو الفارق بين إيداع هذه الثمرة فى صفحات مجلة أو صفحات كتاب ؟

وما هو وجه الخطأ فى تعويد القارئ الصحفى أن يطالع الموضوعات المدروسة إلى جانب الموضوعات العابرة وأحاديث الفضول والسمر الرخيص ؟

لا فارق فى هذه الحالة بين أدب الـكتب وأدب الصحافة ،

ولا خطأ في اقتران الجد بالهزل ، لأنه خير من استئثار الهزل وحده بعقول القراء « الصحفيين »

ومن الواجب هنا أن نفرق بين تفكير وتفكير ، وبين إسراع وإسراع ، وبين ثمرة وثمرة

فإذا كان الكاتب يفهم في أسبوع ما ليس يفهمه الكاتب الآخر في سنة أو بضع سنوات ، فليس هذا البطء بالمزية المحمودة ولا ذلك الإسراع بالذنب المعيب

وليست السلحفاة أفضل من العصفور لأنها سلحفاة ، ولا العصفور أعجز من السلحفاة لأنه عصفور

وإنما المعول على « الثمرة » لا على الزمن الذي تصل فيه هذه الثمرة إلى آكليها . فإذا وصلت إليهم في القطار السريع فليس حتماً لزاماً عليهم أن يردوها إلى البستان ليحملها إليهم بائع يمشي على قدميه !

كذلك لا يعاب الأديب لأنه يكتب في الموضوعات الهينة أو موضوعات الصحافة على اختلاف مواعيدها ، فإنما المعول على ما يقول في موضوعاتها لا على عناوين تلك الموضوعات ، وربما كتب بعضهم في الحروب العالمية فضاعت في قراءته اللحظات فضلا عن الساعات ، وكتب بعضهم في لعب الأطفال فكانت كتابته أحق بالقراءة والحفظ من كتابة ذلك في حروب الأمم وقيام الدولات أو سقوط الدولات

ولم نر من الأدباء المعاصرين من طرق هذا البحث فأحسن فيه كما أحسن الأستاذ محمد روحي فيصل في مقاله بمجلة « الفكر » السورية حين قال : « ... أرى مع ذلك أن الصحافي إذا استأنى في تحقيق كلمته ، وجرى فيما يكتب على مهل وعناية ، وحلل البواعث وتصور النتائج وأحب وكره وخاصم في المثل الأعلى كان أديباً يأدق ما في الأدب من الخصائص ، كما أن الأديب إذا أسرع في تركيز صوره وعرض تصويره صار إلى الصحافة وهو لا يدري »

وهذا هو الرأي السديد في موضوع الأدب والصحافة كما نراه ، ولو عاد إلينا الجاحظ والأصفهاني وابن سينا وأدباء العربية الأقدمون أجمعين لرأوه مثلنا بلا خلاف في الجملة أو التفصيل ، لأننا لا نحسبهم قضوا في تدوين مصنفاتهم المرسلة وقتاً أطول من الوقت الذي يقضيه الصحفي اليوم في كتابة مقال ، ولكنهم قضوا الوقت الطويل في الجمع والتحصيل ، فهان عليهم بعد ذلك أمر التدوين والتسجيل

* * *

وعلى ذكر الكتابة المرسلة نذكر الآراء « الخاطفة » التي تقال هذه الأيام عن السجع والترسل في بعض الموضوعات

فقد تلقف بعضهم كلام الناقدين في نقد السجع فحسب أن السجع معيب على كل حال ، وأنه أسلوب قديم لا يطرقه الكتاب المحدثون ولا يوافق كتابة العصر الحديث !

وكنا قد تناولنا كاتباً منهم بالتسخيف والتفنيد في عبارات مسجوعة ، فظن أنه « أديب حديث » لأنه لا يسجع ، وأننا أناس جامدون لأننا نستخدم السجع في بعض العبارات !

ونحن نتعمد السجع أحياناً للسخرية أو للتوكيد والتقرير ، ونفهم لما ذا يعيبه الناقدون فنفهم أنه أسلوب يطرق في هذا العصر كما يطرق في كل زمان ، لأن السجع لا يعاب لذاته ، ولكنه يعاب لأن المتقيدين به يهملون المعنى في سبيل القافية أو الفاصلة ، فيعاب عليهم هذا الإهمال ، ولو كان مجرد العناية بالقافية عيباً لعيب الشعر كله في اللغة العربية على التخصيص ، لأنه يجمع القافية والوزن معاً وينفرد الكلام المنثور بالقوافي دون الأوزان .

أما إذا اتفق السجع والمعنى فلما ذا يعاب ؟ بل لما ذا لا يستحسن ويطلب في الكلام المنثور ؟ إنه زيادة فيه وليس بنقص ، ومزية فيه وليس بعيب ، ومطلب يراد وليس بمأخذ يجتنب ، ولنا أن نتحدى من ينكره في بعض عباراتنا أن يمحوه ويرسل الكلام في موضعه ، فإن لم يكن الترسل في هذه الحالة هو المخل بالمعنى ، فهو المحق في نقده ونحن المبطلون !

* * *

ومن هذه الآراء « الخاطفة » نقد الناقدين « الخاطفين » لوصف الناقة أو وصف الصحراء في عصرنا الحديث

عز عليهم أن يفهموا لما ذا عيب هذا على الشعراء المتقدمين فحسبوا أنه منقود على الإطلاق ، وأن آية التحريم قد نزلت على وصف النوق والصحراوات إلى أبد الآبيد

وليس الأمر كذلك

فإنما يعاب وصف الناقة على المحاكاة كما تعاب المحاكاة فى وصف الطيارة من أحدث طراز ، وكما تعاب المحاكاة فى وصف القنبلة الذرية ، وكل مخترع يأتى بعد القنبلة الذرية ، ولو أتى بعدها بعدة قرون

والجبال أقدم من الناقة ، فهل يحرم وصفها على الشعراء والكتاب ؟ والبحار أقدم من الجبال ، فهل يحرم وصفها على الشعراء والكتاب ؟ والكواكب والشموس أقدم من الجبال ومن البحار ومن الأرض نفسها ، فهل يحرم وصفها على الشعراء والكتاب ؟

والعجب أن تخفى هذه الحقيقة البينة على أحد ممن يفقهون الشعر أو لا يفقهونه ! فكيف خفيت على أولئك النقاد ؟

ما نخالها خفيت عليهم إلا لأنهم حسبوا أن الناقة « أداة مواصلات » ، ووصفها الشعراء الأقدمون لأنها أداة مواصلات . فلا يحسن بالشعراء المحدثين أن يتركوا أدوات مواصلاتهم ليصفوا النوق فى الصحراء

والناقة ليست بأداة مواصلات وكفى ، إلا إذا كان راكبها جمّالا وكفى

ولكنها حيوان راكبها إنسان ، وشأن الحيوان والإنسان باق فى الشعر وفى الإحساس والتعبير عن الإحساس إلى آخر الزمان

وهى بهذه الشابة أحدث من طيارة اليوم وطيارة القرن الثلاثين وما بعد القرن الثلاثين

وكذلك الصحراء وأهل الصحراء ، وكذلك كل بقعة من بقاع الأرض وكل مطلع من مطالع السماء

فالشاعر الذى تروعه الصحراء ولا ينظم فيها أعرق فى المحاكاة والتقليد من الشعراء المتقدمين ، والأديب الذى يحسب أن الطيارة قد نسخت الناقة والجواد وسائر المطايا الحية لا يحس الحياة ولا الأحياء

وهذه تعقيبات تقال ، ولا بد أن تقال وتعاد على تلك الآراء الخاطفة التى تروج بين خطاف الآراء والمذاهب فى هذه الآونة ، ولكنها ليست بالتعقيبات الخاطفة كما يرى القراء

عباس محمود العقاد

القيم ...

للأستاذ عبد المنعم خلاف

من ذا الذى يستطيع أن يردّ على الناس إيمانهم « بالقيم » العظيمة التى تعمر الوجود ؛ وكانت تعمر القلوب إلى ما قبل هذا العصر المادى ، عصر زوال الحدود وكثير من الفروق القديمة بين الأشياء والأمور ؟ إنها رسالة المخلصين للحياة لرد الإيمان بالحياة نفسها إلى قلوب أوشكت أن تفقد إحساسها بالحياة ...

إن الكون العظيم قائم على نسب ثابتة ، وحدود واضحة بين الجمال والقبح ، والصحة والفساد ، والنظام والفوضى ، وكانت عقول الناس وطباعهم متأثرة بما فى طبيعة الكون من هذه النسب والحدود . لا تحاول طمسها بفلسفتها ، ولا تغييرها بمقدرتها العلمية ؛ لأن الكون المادى ظل فى قوالبه القديمة وحدوده الجامدة ، لا يستطيع الناس الخلط بينها إلى أن أتى هذا العصر الذى زالت فيه كثير من الحدود والمسافات بين الأشياء والأمكنة فزالت الحدود كذلك بين الخير والشر والجمال والقبح أو خيّل للناس أنها زالت ، واتسع مدى الخلط والتأويل ، لأن رجال الأخلاق لم يسايروا المنطق العصرى فيجعلوا الحكم النفسىّ على « قيم » الأمور متمشياً مع الفهم العلمى الجديد لها ، وهذا كله نتيجة لتخلف الروح تخلفاً بعيداً عن سير الحياة المادية وقد صار الناس لا يتذوقون الأشياء المادية تذوقاً روحياً يضفى عليها ظلال التأويل ، ويخلع عليها لونا من حياة القلوب نفسها فيخرجها فى هالة روحية وطاقة نفسية .

خذ أمثلة : الانتقال السريع بالطيران ، والاتصال الخاطف باللاسلكى ، والقدرة الساحقة بالكهرباء والفولاذ والقوى الذرية .. إنها أعمال واقعية الآن ، وكانت إلى ما قبيل الربع الأول من هذا القرن أحلاماً إنسانية خالدة لا تقترب من خيال الناس إلا حيث يدور حديث الآلهة والكائنات القادرة التى تتصل بالآلهة ... والتى لا سدود ولا قيود فى عالمها

فإنما يعاب وصف الناقة على المحاكاة كما تعاب المحاكاة فى وصف الطيارة من أحدث طراز ، وكما تعاب المحاكاة فى وصف القنبلة الذرية ، وكل مخترع يأتى بعد القنبلة الذرية ، ولو أتى بعدها بعدة قرون

والجبال أقدم من الناقة ، فهل يحرم وصفها على الشعراء والكتاب ؟ والبحار أقدم من الجبال ، فهل يحرم وصفها على الشعراء والكتاب ؟ والكواكب والشموس أقدم من الجبال ومن البحار ومن الأرض نفسها ، فهل يحرم وصفها على الشعراء والكتاب ؟

والعجب أن تخفى هذه الحقيقة البينة على أحد ممن يفقهون الشعر أو لا يفقهونه ! فكيف خفيت على أولئك النقاد ؟

ما نخالها خفيت عليهم إلا لأنهم حسبوا أن الناقة « أداة مواصلات » ، ووصفها الشعراء الأقدمون لأنها أداة مواصلات . فلا يحسن بالشعراء المحدثين أن يتركوا أدوات مواصلاتهم ليصفوا النوق فى الصحراء

والناقة ليست بأداة مواصلات وكفى ، إلا إذا كان راكبها جمالا وكفى

ولكنها حيوان وراكبها إنسان ، وشأن الحيوان والإنسان باق فى الشعر وفى الإحساس والتعبير عن الإحساس إلى آخر الزمان

وهى بهذه الثابة أحدث من طيارة اليوم وطيارة القرن الثلاثين وما بعد القرن الثلاثين

وكذلك الصحراء ، وأهل الصحراء ، وكذلك كل بقعة من بقاع الأرض وكل مطلع من مطالع السماء

فالشاعر الذى تروعه الصحراء ، ولا ينظم فيها أعرق فى المحاكاة والتقليد من الشعراء المتقدمين ، والأديب الذى يحسب أن الطيارة قد نسخت الناقة والجواد وسائر المطايا الحية لا يحس الحياة ولا الأحياء

وهذه تعقيبات تقال ، ولا بد أن تقال وتعاد على تلك الآراء الخاطفة التى تروج بين خطاف الآراء والمذاهب فى هذه الآونة ، ولكنها ليست بالتعقيبات الخاطفة كما يرى القراء

عباس محمود العقاد

القيم ...

للأستاذ عبد المنعم خلاف

من ذا الذى يستطيع أن يرد على الناس إيمانهم « بالقيم » العظيمة التى تعمر الوجود ، وكانت تعمر القلوب إلى ما قبل هذا العصر المادى ، عصر زوال الحدود وكثير من الفروق القديمة بين الأشياء والأمور ؟ إنها رسالة المخلصين للحياة لرد الإيمان بالحياة نفسها إلى قلوب أوشكت أن تفقد إحساسها بالحياة ...

إن الكون المظيم قائم على نسب ثابتة ، وحدود واضحة بين الجمال والقبح ، والصحة والفساد ، والنظام والفوضى ، وكانت عقول الناس وطباعهم متأثرة بما فى طبيعة الكون من هذه النسب والحدود . لا تحاول طمسها بفلسفتها ، ولا تغييرها بقدرتها العلمية ؛ لأن الكون المادى ظل فى قوالبه القديمة وحدوده الجامدة ، لا يستطيع الناس الخلط بينها إلى أن أتى هذا العصر الذى زالت فيه كثير من الحدود والمسافات بين الأشياء والأمكنة فزالت الحدود كذلك بين الخير والشر والجمال والقبح أو خيل للناس أنها زالت ، واتسع مدى الخلط والتأويل ، لأن رجال الأخلاق لم يسايروا المنطق العصرى فيجعلوا الحكم النفسى على « قيم » الأمور متمشيا مع الفهم العلمى الجديد لها ، وهذا كله نتيجة لتخلف الروح تخلفا بعيدا عن سير الحياة المادية وقد صار الناس لا يتذوقون الأشياء المادية تذوقا روحيا يضفى عليها ظلال التأويل ، ويخلع عليها لونا من حياة القلوب نفسها فيخرجها فى هالة روحية وطاقة نفسية .

خذ أمثلة : الانتقال السريع بالطيران ، والاتصال الخاطف باللاسلكى ، والقدرة الساحقة بالكهرباء والفولاذ والقوى الذرية .. إنها أعمال واقعية الآن ، وكانت إلى ما قبيل الربع الأول من هذا القرن أحلاما إنسانية خالدة لا تقترب من خيال الناس إلا حيث يدور حديث الآلهة والكائنات القادرة التى تتصل بالآلهة ... والتى لا سدود ولا قيود فى عالمها

والآن بعد أن صارت هذه الأعمال من أعمال الانسان ابن العجز القديم ، صار يفعلها وهو فى ذهول عن « قيمة » مايفعل ، كأنها لم تكن يوماً ما أحلاماً عن عالم الآلهة ! وإنى أعتقد أن أزمات الحياة الآن ناشئة عن هذا الذهول الشنيع الناشىء من إهمال الوعاظ والأخلاقيين والمربين أن يجعلوا هذه القدرة الانسانية الأخيرة مجالا عظيما من مجالات الوعظ والارشاد لإيقاظ الإنسان أولا إلى « قيمة » ما يفعله الآن .

ونحن إذا أفلحنا فى أن نجعل الفرد الإنسانى يتذوق هذه الأعمال المادية اليومية التى يفعلها تذوقاً روحياً يجعله يتلفت بالفكر والقلب إلى قيمتها ، نفلح لاشك فى أن نعود به إلى رؤية « القيم » المظيمة الخالدة التى تعمر الوجود ، وكانت تعمر القلوب أيام العجز قبل التسلط المادى الأخير .

وبديهى أن الطفل الناشىء فى هذا العصر بين القطارات والطائرات والبرقيات وعالم الكهرباء ينشأ وهو يرى هذه الأشياء كأنها أشياء طبيعية لا تسترعى انتباهه ، ولا تثير اهتمامه ، لأنه ألفها منذ نشأته ؛ فيمر عليها مخدراً بالألفة ، ولا يعرف لها قيمة تجعله يلتفت إلى « الإنسانية » التفاتة خاصة يدرك بها تفردها وامتيازها .

ومن هنا ينشأ الذهول عن « القيم » الثابتة التى فى الوجود ؛ كالحق ، والخير ، والجمال ، والمروءة ، والإيمان ، وغير أولئك من معايير الحياة القديمة التى كانت تسجد على أقدامها قلوب الناس أيام العجز .

وما أدرى : لعل هذا الكائن الإنسانى سيأتى عليه عصر يشعر فيه بقدرة فائقة ، ولعله حينئذ يستحيى كما يستحيى الخلائق العقلاء الكاملون أن يعتدوا على « قيم » الحق والخير . لأن حياة الإنسان القادر لا تستقيم ولا تستمر إن لم يقمها على الحق والخير ، والحق والخير هما أساس هذا الوجود الذى نعيش فيه ، ولا يعمى عنهما وعن أخواتهما كائن يخلف الله فى الأرض تلك الخلافة الواسعة .

والحياة الفردية والحياة الاجتماعية قد أثر فيهما فقد « القيم » الآن تأثيراً خطيراً هو الذى يجعلهما على قلق واضطراب وتقطع أمر . فلست ترى الفرد الذى يستحيى من نفسه إذا فعل القبيح أو الضار حينما يخلو بتلك النفس اللوامة ؛ لأنه صار يرى الأعمال بدون « قيمها » ، وصارت الفلسفات الأبيقورية والميكيافللية تمهد له وتبرر عمله ، وتسعفه بالأعذار الكاذبة الخادعة ، فلا يسمع لضميره صوتاً ينكر عليه ، لأنه فقد الحساسية بالقيمة الخلقية للأعمال ، وأسمعته الحريات التى صارت شعار العصر ، واختلطت فيها حرية الفكر والرأى بحرية الطباع ، وحرية الطباع معناها الانطلاق وراء البدوات والنزوات ، والبدوات والنزوات هى امتداد حياة الطفولة التى لا تدرك « قيم » الأشياء ، وامتداد طيشها الذى لا يحسب حساب عواقب الأعمال والأقوال .

ولست ترى كذلك الآن الدولة التى تحترم العهد والكلمة والشرف لأن فقد « القيم » قد انتقل إلى المجال الدولى كذلك كنتيجة طبيعية للحياة الفردية الحالية . وهى حالة بالغة الخطورة إن لم يتداركها المربون والمفكرون بالسعى المتواصل لرد « القيم » إلى مكانها من القلوب والأشياء ، وخلع القداسة على كل حرمات الحياة ، وإحاطة النظم والقوانين والعقائد السامية بهالة من الاحترام والاعتبار ؛ حتى تحد من الفجور الذى يصحب القدرة المادية الفائقة ، وتكفكف من غلواء الغرور الذى تبعثه السيطرة على القوى . ذلك الغرور الذى جعل الولايات المتحدة الأمريكية توشك أن تتنكر لرسالتها الإنسانية ، وتغفل عن تاريخ أبطالها العالميين حين اهتدت إلى سر القنبلة الذرية الذى جعل لها المقام الأول فى التسلح والمقدرة على البطش . فهى الآن تسير فى سياستها العالمية تحت تأثير غرورها بأنها حائزة أسرار ذلك الطارق العنيف الذى جعل اليابان تركع على قدميها إثر ضربتين اثنتين من ذلك الطارق .

فقيمة رسالتها الإنسانية قد أثر فيها زيادة مقدرتها المادية ، وقوتها المحاربة ، لأنها خطت خطوة واسعة فى العلم لم يصحبها خطوة موازية فى الروح التى تخلع القيم على الأشياء ، وإن رد القيمة الخلقية للأعمال والأشياء رسالة تحتاج إلى معجزات من الجهاد الموصول والإخلاص الإنسانى والاستمداد من رب الحياة الذى جعل فى الإنسانية مرونة تجعلها تدرك رشد أمرها وتكيف حياتها حسب مصلحتها ، وتخرج من الأهوال وفيها بقايا حياة تسمح بتجديد شملها ، وامتداد وجودها فى كل الظروف والأحوال .

وأعظم أسلحة الجهاد فى هذا السبيل هو التفاؤل والتأميل ، وعدم اليأس من روح الله ؛ مع اليقين الثابت بأنه ما خلقنا إلا للخير ولو بدا فى ثياب الشر لدى أنظارنا القصيرة .

عبد المنعم خلاف

هــــزل . . . !

للأستاذ محمود محمد شاكر

يخيل إليّ أن بين قلمي والليل صبابةً أو هوًى قديماً . فطالما رأيتني أعقد الرأى والعزمَ نهاراً على شيء أجعل الكتابة له قيداً إذا جنّ الليلُ ، فما أكاد أحملُ القلم وأبدأ حتى أرى القلم ينقض عليّ رأيي وعزمي ويمضي إلى حيث شاء كما شاء ، فما يُبقي من آية النهار المبصرة شيئاً إلا طمسَهُ أو أزاله أو نكَّر من معارفه . وما أظنّ إلا أن كل كاتب قد ابتُلِيَ من قلمه بمثل الذي ابتُليتُ به أو بشيء يقاربه . ومن أعسر شيء ألقاه من هذا القلم أنى ربما بدأتُ الكتابة ، فإذا هو مِطواعٌ حثيثٌ ماض لا يتوقف ، وإذا كلمةٌ مرسلةٌ إليه ليقيدها ، فإذا هو كالفرس الحرون قد ركب رأسه وأبى إباءً ، فلا أزال أترفقُ به وأستحثُّه وأُديره بين أناملى ليلين ما استعصى من طباعه ، ولكنه يأبى إلا لجاجةً وعناداً ، ثم ينزع إلى وجه غير الذى أردتُ ، وإذا أنا مضطر أن أعود من حيث بدأ هو لا من حيث أردتُ أنا أن أبدأ ، وعندئذ يمضى على هواه وعلى ما خيّلتْ . وقد عرفت ذلك من عاداته قديماً ، فما يكاد يفعل ذلك حتى أثوبَ به إلى ورقة أخرى فأبدأ الكتابة من حيث أرادُ ، وأمرى لله .

أفتراني أخطئ إذا أنا زعمت أن لقلم الكاتب شخصية مستقلة بل منفصلة تكاد أحياناً تغلب حامله على رأيه وعلى تقديره وعلى عزائمه ؟ أم الإنسان المفكر صاحب العقل شيء آخر غير الإنسان الكاتب حامل القلم ؟ فهو حين يفكر يُعطى أفكاره من الحرية والسَّعة والحماسة ما يجعلها أقدر على التصرف فى وجوه الرأى وشعابه ونواحيه ، فإذا حمل القلم ليملى عليه بعض أفكاره ، استقل قلمه بالفكرة بعد الفكرة يزنها ويقدرها على قدر عقله هو لا على عقل حامله ، فربما عرض له أن ينبذ منها أو يتنقّصها أو يتجافى عن طريقها فيسدّ عليها المسالك ويضرب عليها بالأسداد ، ثم يشرع إلى وجه غير الذى يُرَاد له ؟ أم الإنسان إذا فكر ثم أراد أن يكتب وحمل القلم صار هو نفسه شخصاً آخر غير الإنسان المفكر بغير قلم محمول ؟ كل ذلك ممكن ، ولكنه على كل حال متعبةٌ وشقاء لحامل القلم ما بعده شقاء ولا تعب .

وأعرف رجلا من أصدقائى الكتاب ، إذا حمل القلم وكتب كلمات ألقى قلمه ضجراً يائساً متململا من عُسر المدخل الذى دخل به على ما أراد ، فإذا عاد عاد القلم إلى جماحه وتمدره ، ولا يزال كذلك مرة بعد مرة حتى يرى قلمه قد رضى وأطاع ومضى إلى آخر حرف فى المقالة غير متوقف ولا متلعثم ، وقد قال لى : إنه ربما مضت الأيام على ذلك الحِران ، مع أنه يعلم مستيقناً أن الفكرة كانت قد اختمرت واستوت وتهيأت له من قبل أن يحمل القلم بأيام ، وأنه كان يظن أنه لن يحمل قلمه حتى يراه قد انساب انسياباً لا يعوقه شيء ، فإذا فرغ من كتابة ما أراد لم يجد أنه زاد قليلا ولا كثيراً عما كان فكّر فيه وعزم على كتابته . فأى سر هذا الذى ينطوى عليه القلم حتى يكون هو المتصرف الذى لا يردّ لما أرادهُ أمر ؟ قد تقول : إنه الحالة النفسية يكون عليها الكاتب ؛ وقد تقول : إنه الجو الذى تعيش الكلمات التى يبتغى استنفارها من مكامنها ؛ وقد تقول أشياء كثيرة من هذا وأمثاله ، ولكن يبقى أنك لا تكاد تميز بعدَ الكتابة شيئاً من الاختلاف عما كنت قد فكرتَ فيه وأدرته فى نفسك وعرفت أنه قد أطاع لك ، فمن أين جاء هذا التوقف العجيب الذى تعتاده بعض الأقلام ؟ !

وأنا قد جربت نفسى ، فرأيتنى إذا أردت أن أكتب أحياناً شعراً يدور فى قلبى ويلح على خاطرى ، فأمسكت أى الأقلام وقعتْ عليه يدى ، فإذا هو عصىٌّ عنيدٌ لا تلين له سنٌّ — أو قناةٌ على ما يقولون — فإذا ألقيتُه وحملتُ القلم الذى اعتدتُ زماناً أن أكتب به الشعر ، أو الذى اعتاد هو أن يكتب لى الشعر ، انطلق على سجيته طيّعاً رفيقاً سهل المقادة حسَن التهدّى إلى قِبْلة الشعر . فأحبُّ الآراء إليّ أن أجعل للقلم شخصية منفصلة تعين الكاتب أو تعانده ، فذلك أشبه بالسلطان العريض المظيم الذى فرضته الأقلام على الحياة ، والذى لولاه لعاش الإنسان ومات وكأنه لم يوجد قط .

***

كنتُ أردتُ أن أكتب شيئاً عن المتنبى وعن حكمته

وبصره بالحياة وبالناس وبما يعتلج فى القلوب على اختلافها ؛ وذلك لحديث جرى بينى وبين أحد ضيوف مصر من أهل العراق . وأردت أن أقارن بين مايسمونه شعر الحكمة ، وبين حكمة المتنبى فى شعره ، وأين وقع منه سائر الشعراء ؛ فما كدت أبدأ حتى عرضت لى أبيات المتنبى التى يقول فيها :

إنما أنفسُ الأنيس سباعٌ يتفارسنَ جهرةً واغتيالا
من أطاق التماس شىء غِلاباً واغتصاباً لم يلتمسه سؤالا
كل غادٍ لحاجةٍ يتمنى أن يكون الغضنفر الرئبالا

وذكرت عندئذ ذلك البيت الذى أحيته أم كلثوم حين غنت فى شعر شوقى :

وما نيل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غِلابا
وما استعصى على قومٍ منالٌ إذا الإقدام كان لهم ركابا

وأردت أن أعرض للفرق بين القولين ، وبين العبارتين ، وبين القوتين ، وبين البيانين . فأى دقة وأى هداية كانت لهذا الرجل الفذ الذى لو احتلت على بعض ألفاظه أن تجد لها بديلا فى كلامه لأفسدت معنى البيت وقوته وعبارته وبيانه ! خذ مثلا لفظ « الأنيس » ، وتخير ما شئت من حروف اللغة وضعه حيث وضع المتنبى لفظه ، واقرأ وانظر وتدبر ، هل يليق أو يسوغ أو يلين أو يستقر فى مكانه من البيت ؟ ضع مكانه « الإنس » أو « البشر » أو « الناس » أو « الأنام » أو ما شئت ، سواء استقام الوزن أو لم يستقم ، تجد الفرق بين الاختيارين عظيما واسعاً . فهو قد اختار اللفظ والبناء الذى يدل دلالة على المؤانسة والرقة والتلطف وإظهار المودة والظرف وحلاوة الشمائل ولين الطباع ، ليظهر لك أنها تخفى تحت هذا كله طباعاً وحشية ضارية مترفقة حيناً وباغية أحياناً ، فمهد للصورة التى أرادها باللفظ الذى لا يستغنى عنه فى دقة الصورة وحسن بيانها . فأين هذا من ضعف شوقى الذى لم يزد على أن جمع كلمات رُصّ بعضها إلى بعض لا حاصل لها ولا خير فيها . وما قيمة ذكر الركاب ، مع الإقدام والاستعصاء والمنال ؟ وأما البيت الأول « وما نيل المطالب » ، فهو كلام عامى دائر على الألسنة ، ولا فضل فيه ، بل هو أشبه بتقرير ضعيف عن معنى ليس بشىء .

وعندئذ عرض لى أنا أن هذا الفصل من شوقى هزْلٌ للمعانى ، وهزل فى طِلاّبها ، وهزل فى إدراكها على وجهها . وإذا هذا القلم يسائلنى – أو يأبى إلا أن يذكرنى – بأن الهزلَ الذى كان فيه شوقى خير من كل هذا الهزل الذى أصبحنا وأمسينا نعيش فيه . فالدنيا تجدُّ من حولنا ونحن نَهزل ، ولا نكاد نجد من كبار رجالنا أحداً قد نهض به جَدُّه وجِدُّه فى ناحية إلا وقد سقط به هزله فى ناحية أخرى . وأن أشدّ البلاء من مثل هذا الرجل أن يُلبس عليه حتى يظن أن هذا الهزل هو أجدُّ الجدّ ، لأنه ظن أنه ما بلغ إلا بجدّ كان فيه طبيعة مغروزة فظن حتى صار ظنه حقاً عنده .

ولسنا نحب أن نطمئنَ على الرجال بالحق فضلا عن الباطل ، ولكن بلادنا فى كل مكان من مصر إلى الشام إلى لبنان إلى فلسطين إلى العراق إلى بلاد الهند إلى أندونسيا إلى الجزائر وتونس ومراكش ؛ قد أحست شعوبها أن ساعة الجِدّ قد آذنت ودنت ، وأنها ساعة إذا أفلتت فلن تعود إلا بلاء وعناء وشقاء . ومع ذلك فالرجال والزعماء وأصحاب الرأى أيضاً ، وهو أشد البلاء ، قد ركّبوا فى رؤوسهم أذناً من طين وأذناً من عجين – كما يقول المثل العامى – فما يسمعون حسيس النار التى تشتعل فى صدور أبناء هذا الشرق إلا كحشرجة الميت ، فهم يعالجون أمورنا على سورة من اليأس والملل ، كأنما يرجون الظفر بأى شىء كان ، ما داموا يحسبون أنهم إذا رفعوا لأعين الناس هذا الذى ظفروا به ، وقالوا لهم لقد ظفرنا لكم بخير ما ترجون ، صدّقهم الناس وصفقوا لهم ومشوا فى ركاب مجدهم ، وجأروا إلى الله بالشكر على ما أنعم على أيديهم . فهم ليسوا طُلاّب حق ضائع بل طُلاّب مجد كاذب ، يظنون أنهم يختمون به أعمالهم الصالحات .

فأى هزل كهزل رجال الهند مثلا ، وهم الذين عركوا ساسة الإنجليز مئة وخمسين عاماً أو تزيد ، ولقوا من خداعهم وكذبهم وتغريرهم وقسوتهم وشناعة أحقادهم ما لا ينسى مواجهه إلا غِرٌّ غافل ؟ وإذا الذين كانوا بالأمس نار الثورة وضرامها قد رضوا أن يستمتعوا بالحكم ويصيروا وزراء فى شعب مستعبد تدوسه أقدام الغاصبين ، وهو لا يزال يسمع منهم أن الهند جزء لا يتجزأ من هذه الإمبراطورية التى لا تغيب الشمس عن

أملاً كها – فأى هزل أسخف وأبعد فى الغفلة والسذاجة وسوء التقدير من هذا الحكم ؟ وفيمَ يدلس هؤلاء على إخوانهم الذين لا يعرفون كما يعرفون من خبايا النيات البريطانية التى تدسّ لهم السمّ فى الدّسم ؟ أو لم تكفهم العِبْرة التى لا تزال أختهم مصر ترْفل فى أغلالها منذ سنة ١٩٢٤ إلى يوم الناس هذا ، حين قبِل رجال الثورة أن يكونوا للناس حُكاماً تحت ظلال الغَصْب والاحتلال ؟

وأى هزل أشد على النفس الشاعرة مرارة وغضاضة من رجال قاموا من غفلتهم ومنامهم يسمعون الشعب كله ينادى « الجلاء ووحدة وادى النيل » ، أى ينادى بالحق الطبيعى الذى لا يحتاج إلى تفسير ولا بيان ولا شروط ، والذى ظلت مصر الصابرة تهمس به أحياناً وتصرخ به أحياناً أخرى منذ سنة ١٨٨٢ ، وإذا هم يطالبون بالذى يطالب به الشعب ، ولكنهم لا يلبثون إلا قليلا حتى يرضوا لأنفسهم أن يدخلوا من باب المفاوضة مع البريطانيين ، فلما دخلوا داروا فيها كما تدور بهم ، وهم كانوا أولى الناس بأن يعرفوا بعد طول التجربة ما عرفه الشاب مصطفى كامل إذ قال لهم : « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » ، لأنه أدرك أن المفاوضة معناها أن ينزل الضعيف عن أكثر حقه للقوى الطائش الباغى ؛ فما ظنك به وهو ليس بقوى طائش باغ وحسب ، بل أيضاً منصور مظفر قد خرج من الحرب وهو يظن أن الدنيا له ، وأنه وإن كان ضعيفاً بين الأقوياء ، إلا أنه هو الجبار المعظم بين الضعفاء ؟ وأنه سوف ينال من الأقوياء والضعفاء بحيلته وسياسته ما لا ينال بالعنف ، فلذلك آثر طريق المفاوضة ، واتخذ أعوانه لينيموا الشعب إليها حتى يهدأ ويسكن ويظن أنه بالغ ما يريد ؛ لأن الدنيا تغيرت ، ولأن العالم فى حاجة إلى نظام جديد ليس بينه وبين القديم شبه . وظلت المفاوضات أشهراً وهى تسير فينا على عكازتين كأنها هى الأخرى من ذوى العاهات الذين خلفتهم الحرب عُرْجاً وظُلّعاً أو شراً من ذلك . فأى هزل هذا ؟

أى هزل هذا الذى يؤمن به رجال يخالهم الناس من أصحاب العقل والحكمة وسداد الرأى فى المعضلات ؟ وماذا فعلوا منذ بدأوا إلا أن قدّم الإنجليز مشروعاً وقدموا مشروعاً ؟ ولا يزالون على ذلك إلى يومنا هذا . فهم إنما يتقارضون كلاماً لا يغنى عنهم ولا عن مصر . وفيمَ يتفاوضون ؟ ألا إن الحق بيِّن والغصْب بيِّن ، فقولوا لأصحابكم الذين تفاوضون إن مصر لا تريد إلا تحقيق هذه الكلمات : « الجلاء ووحدة وادى النيل » . إننا نريد مصرنا وسوداننا ، إننا لا نريد منكم إلا أن تدعونا وشأننا ، اخرجوا من بلادنا ، فارقونا . قولوا ذلك وعلموا الشعوب بإيمانكم وإصراركم أن تكون أشد إصراراً وإيماناً وأوفى شجاعة وأقدر صبراً ، وإلا فسوف يأتى يوم يجدُّ فيه الشعب جدَّه ، فإذا الذى ظننتم أنه مجد لكم هو أبغض شىء إلى الشعب ، واعلموا أنه لا مجدَ إلا بِفعَال ، والهزل مَخْبثة للفَعال ، فجِدّوا إذن وعودوا إلى الانجليز من حيث بدأوا بكم .

إن هـذا الذى يحدث فى الهند وفى مصر حسرة للنفوس تطوى تحتها أسواً مغيبة ، فهل من رجال ينقذون بلادهم من شرّ هذه الموبقة المستطيرة ؟ إن الحكام والمفاوضين طلاّبَ المجد لن يذوقوا لذة المجد حتى يكون الشعب هو الذى يذوق لهم طعمه ، فإذا استكرهه ، فلا تخدعنهم الحلاوة التى يجدونها فى ألسنتهم ، فإنها مرارة الدهر وذلّ الأبد . ورحم الله المتنبى :

من أطاق التماس شىء غلاباً ... واغتصاباً لم يلتمسه سؤالا

فعلام المفاوضة ، وفيم السعى إلى الحكم ؟

محمود محمد شاكر

من أحاديث الإذاعة :

عيدي الذي فقدته (*)

للأستاذ علي الطنطاوي

يا آنسين بالعيد، يا فرحين به : هل تسمعون حديث رجل أضاع عيده ، وقد كانت له أعياد ، أم يؤذيكم طيف الشجى إذ يمر بأحلام أفراحكم الضاحكة ؟ إذا كنتم تصغون إلى حديثي فلكم شكري ، وإن أنتم أعرضتم عني فما يضرّني إعراضكم ، وإن من نعم (المذياع) أنه لا يدري المتكلم فيه من ينصت له ، ومن يَشْغب عليه ، ولا يسمع مدحاً ولا قدحاً ، وما يرى إلا (العلبة) يكلمها ، وما ترد علبة على متكلم جواباً ...

ولا تقولوا إذا سمعتم حديثي . هذا رجل لا يتكلم إلا عن نفسه . فكذلكم الأدباء كلهم ؛ لا يتكلمون إلا عن أنفسهم ، ولكنهم إذ يصفون أحلامها وآلامها يصفون أحلام الناس كلهم وآلامهم ، فهم تراجمة العواطف ، وألسنة القلوب ، وصدى الخواطر ، حتى ليقول القارئ إذ تمرّ به آثارهم : ما هذا ؟ إن في هذا التعبير عما أحسّ به ؛ إنه وصف لي أنا وحدي ... وما هو له وحده ؛ إنه وصف لكل نفس بشرية ...

ألا ما أعظم فضل الأدباء على الناس ! ولكن الناس لا يشكرون

* * *

يا سادة : إنه كان لي في حياتي عيد واحد ، ولكن طمس القدم صورته في نفسي فلا أرى منها إلا ملامح . لقد وجدت عيدي في (صُرْماية حمراء[1]) أصبحت يوماً فلقيتها إلى جانب الفراش ، وكنا نبسط الفرش ، وننام على الأرض ؛ لم تكن قد انتشرت هذه الأسرّة وعمت ، لم تكن إلا للأكابر ، ولقيت معها (قنبازاً) من (الألاجة[2]) له خطوط حمر على أديم أخضر كأنه حقل قمح قد نبتت فيه سطور من شقائق النعمان ، وعقالاً (مقصباً) كأنما قد نسج بخيوط الذهب ، يبرق كأنه تاج ملك جديد . وعباءة رقيقة فيها مناطق حمر ، وأُخَر بيض ، وحواش من القصب اللماع ؛ لها طُرَر مختلفات الألوان ... تخطف بريقها النظر .

فلم أصدق أن كل ذلك لي أنا ، وسألت متحققاً . فقالوا : إنه لك ، إنه لباس العيد . قلت : وما العيد ؟ قالوا : العيد . ألا تعرف العيد ؟ فلم أعرفه ، ولكني قنعت بما وجدت من نعمائه وتخيلته ضيفاً جميلا نزل البلد ...

وذهبنا نبصر العيد ، ومشينا في الطرقات ، وإذا الوجوه باسمات الثغور ، منبسطات القسمات فكأن أصحابها قد لبسوا مع الثياب البراقة الزاهية حلّة من اللطف والظرف ، ولم نر نحن الصغار من يزجرنا ذلك اليوم عن حماقة نأتيها ، أو ذنب نذنبه ، بل وجدت كل من أسلم عليه من أقربائي وأصحاب أبي يعطيني نقوداً (نحاسات) صفراً لامعات كالدنانير ، و (متاليك) جدداً ، ولم نكن قد عرفت هذه القروش الورقية القذرة المزقة التي يأنف المرء من مسّها ، فاجتمع لديّ مبلغ من المال ، هو بالنسبة إلى طفل مثلي ثروة كثروة رجال (الشركة الخماسية) في دمشق ، ولكني أخذته حلالا بطيب نفس ، وأخذوا هم ما أخذوه حراماً انتزعوه من فم الأرملة واليتيم ؛ فكان برداً على قلوبهم وسلاماً في لهب هذه الحرب ، ولكنه سيكون من بعد ناراً آكلة في أكبادهم ، وسمّاً هارباً في أمعائهم ، وغصة خانقة في حلوقهم ، ولعنة متسلسلة في ذراريهم ، وجحيما متسعراً يوم المآب ... فارتقبوا — أثرياء الحرب — إنا معكم من المرتقبين !

* * *

وكانت دارنا في (العُقَيبة) فكان أول ما لقيت من العيد (جامع التوبة) ؛ هذا الجامع الأنوس الذي يملأ جوّه دائماً خشوع وأنس ، ولم أكن أدري يومئذ ما الخشوع وما أنس الروح ، ولكني أحسست فيه فرحة شاملة ملأت نفسي ، وذهبنا إلى (الأموي) ، وكان صوت التكبير ينبعث منه قوياً مجلجلا ، كأنه هدير (بردى) عند شلال (التكية) فشعرت بحال لم أعهدها في نفسي من قبل ولم أعلم ما هي ؛ شعرت بالحماسة

(*) أذيع ولم ينشر .

(١) الصرماية : كلمة شامية معناها « الخف » .

(٢) نسيج شامي هو الذي تصنع منه قفاطين مشايخ مصر .

التى تغلى منها دماء المسلم حينما يسمع هذا النشيد السماوى الذى لم تسمع أذنا الأرض نشيداً بشرياً أروع منه روعة أو أشد أو أقوى ؟ هذا النشيد الذى علمت بعد أن أجدادنا كانوا يهدرون به فى أشداقهم فتتداعى أمامهم الحصون ، وتتساقط الأسوار ، وتفتح لهم به أبواب المجد حتى فتحوا به الدنيا ، هذا النشيد الذى كان من بشائر الرجاء أن اتخذه (الاخوان المسلمون فى مصر) شعاراً لهم ليصلوا به ما كان انقطع من قلادة أمجادنا التى طوقنا بها عنق الزمان ، ولينشروه مرة ثانية فى آفاق الأرض فتردده معهم الجبال والأودية . والمدن والقرى : الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله — الله أكبر ، الله أكبر ، ولله الحمد !

ودخلت فوجدت فى المسجد متعة لم أجد مثلها فى لهو كنت أتخذه ، أو ما كنت أسرّ به ، وجدت — ولم أكن أدرى — متعة الدين والدنيا إذا اجتمعا : الكثرة والألفة والثياب البراقة والنظافة والنظام ، والتقى والاخلاص ، والغنى السمح الشاكر والفقر المتجمل الصابر ، والمعاونة على الخير ، والمواساة والإيثار ، وكان فى المسجد نساء قد اجتمعن فى (المشهد(١)) بالأزر البيض والملاءات الساترة ، ما يظهر منها عين ولا بنان ولا ساق ، قد جئن للصلاة .

كذلك كان بلدنا قبل أن تصله هذه (الحضارة) الجديدة ، كذلك كان يوم كان أهله متأخرين جامدين ، فياليته يعود كما كان ، يا ليتنا بقينا متأخرين عن هوّة الفساد لم نتقدم عليها ، جامدين لم نعرف هذا المَيْع . إن الجامد يتماسك ويثبت ، أما المائع فيسيل ويجرى حتى ينصب فى البَلُّوعة(٢) ... أفعرفتم الآن مصيركم يا أيها (المائعون) ؟ !

ثم أممنا (مقبرة الدحداح) فاذا الحياة الضاحكة جاءت تزاحم الموت العابس على أرضه ، وتنتزع منه مثواه ، وإذا المقبرة دار الوحشة والعبرة قد أحالها العيد منزل الفرح واللهو ، ففيها (الدُّوَيخات) منصوبات ، و (القلابات) قائمات ، والعربات الصغار مزينات بالأعلام الملونات مشدودة فى جوانبها الأجراس والجلاجل ، والأطفال بثيابهم التى تحكى زهر الربيع ، منها الأحمر والأصفر والأخضر والفضى والمقصّب وذو الطرر وذو الحواشى ، راكبون على أفراس (الدويخة) تدور بهم ، أو جالسون فى سرر (القلابة) تصعد بهم وتنزل ، أو متعلقون بالعربة ، والنساء قاعدات عند النهر ، والرجال مجتمعون عند التلّ ، وعلى القبور الآس الأخضر معقود بشرط الحرير يخيل للرائى من كثرته أنه فى جنة ملتفة الأفنان ، وخلال الآس الخيام المنقوشات والسرادقات ، وباعة (القضامة) و (اللب) و (عرق السوس) يجولون بين الناس ينادون أعجب النداء ، وبياع (الفول النابت) قد أوقد ناره ورفع قدره ، ونصب مائدته ، وحفّ به الصبيان والبنات ، وصاحب (صندوق الدنيا) قد حطّ صندوقه ، وقعد حوله الأولاد ، ينظرون فإذا هم يسيحون فى البلاد ، ويرون عبلة وعنتر بن شداد ، فلا يكادون يستمرئون الحلم ويستغرقون فيه حتى يرخى الستار فيهبطوا إلى أرض الواقع ؛ فإذا الذى كانوا فيه قد مرّ كما تمرّ الأحلام لم يخلف إلا ذكرى مشوبة بألم الفقدان .

كذلك كانت المقبرة أول ما عرفت العيد . إنها صورة المقبرة يوم نفخ إبليس فى بوق الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤

صبركم يا أيها المستمعون ، ودعونى أطل وقوفى على هذه المقبرة ؛ فإنكم لا تعلمون منزلتها فى قلبى ، ولا أستطيع أن أعلمكم ، وكيف ؟ أوتصدقون إذا قلت لكم إن لهذه المقبرة صوراً فى نفسى أحلى من صور الرياض ، وذكريات أجمل من ذكريات الحب ؟ وإن نهرها هذا الصغير القذر أعزّ علىّ من بردى ودجلة والنيل ، وأشجارها هذه المنحنية عليه أبهى عندى من صنوبر فالوغا ونخيل الأعظمية ، وكراسيها هذه الواطية أفخم فى عينى من أسرّة (أوريان بالاس) و (شبرد) ؟

إن فى هذه المقبرة بقايا من قلبى ، إن لها تاريخاً فى نفسى ، يعرف أكثره أخى أنور العطار . فسلوا أنور متى يقوم بحق الوفاء لهذه الذكريات فيخلدها بقصائد بارعات من شعره العبقرى ، فما أحسن أنا تخليدها ، لا أطيق أن أفى لها هذا الوفاء ؟ سلوه أنسى ليالى نمشى فيها لنزور قبور الأحبة فى ظلمة الليل : أبى وأمى وأمه وأبيه ، ونبكى عليها ، والمقبرة ساكنة خالية ، ما ترانا إلا عيون النجم ، وما تسمعنا إلا الشواهد الشواخص .. ونحدق فى سدفة الزمان نرقب أن نرى طلعة الأحباب الذين اشتد إليهم

(١) المشهد فى الأموى اسم لحرم صغير فيه جانبى وفى المسجد أربعة مشاهد فى أحدها رأس الحسين . هو فيه لا فى مصر والله أعلم .

(٢) البلوعة البالوعة من العامى الفصيح .

الشوق وطال النياب ، فلا نرى إلا ظلاما متراكبا ، ونعود فنحاول أن نخترق حجاب الآتي لنبصر طيف الأمل الحلو فلا نبصر إلا الظلام ... ليالي كنا نعود وقد برّح بنا الألم ، وهدّنا الحزن ، فأستمع من أنور بواكير أشعاره ويسمع مني بوادر رسائلي ، تلك البواكير التي قرأها الناس فرأوها ندية بالدمع ، فياضة بالحزن . فقالوا : ما لهذا الشاب والألم ، ماله لا ينظم إلا الشعر الباكي ، ما دروا أن هذا الشعر قد نظمت حباته على قبر الوالدين ، في ليالي اليتم السكوالح ...

مساكين الأدباء . يجبلون فلذات قلوبهم بدموع عيونهم ، ليقيموا منها تماثيل الأدب فيأخذها الناس عابثين ، وينظرون إليها لاهين ، ويعيبونها ظالمين ، ثم يملّونها كما يمل الصبي لعبته فيرمونها فيحطمونها ، ويفتشون عن لعبة جديدة ...

مساكين الأدباء !

يا سادة :

لقد مشيت بعد في الزمان ، وسحت في البلدان ، فكبرت ورأيت أياماً قال (التقويم) إنها أيام عيد ، رأيتها في دمشق بلدي ، ورأيتها في الأعظمية في بغداد ، ورأيتها في البصرة ذات الشط والنخيل ، وفي الحرش من بيروت ، وفي القاهرة أم الدنيا ، ولكني لم أعد أجد في ذلك كله تلك البهجة التي كانت للصرماية الحمراء ، والعقال المقصّب ، والعربة ذات الشراع الأحمر والجلاجل والثياب الملونة الزاهية التي تحكي زهر الربيع ؟ أفتغيرت الدنيا أم قد أضعت عيدي ؟

أتغيرت الدنيا يا ناس أم الناس قد فقدوا فرحة العيش حينما تركوا تلك الحياة السمحة القانعة الطاهرة المبرأة من أدران حضارة الغرب ؟ تلفتوا أيها السادة حولكم ، واسألوا من تلقون من الكهول عن ذلك الزمان ... تجدوا في عيونهم عَبْرة ، وفي قلوبهم حسرة ، وعلى ألسنتهم جواباً واحداً : رحم الله تلك الأيام لقد كانت أيام انشراح ...

كانوا لا يعرفون دسائس السياسة ، ولا التزاحم على الرياسة ، ولا شبه العلم ، ولا رذائل الحضارة ، لا يختلفون على مذهب اجتماعي ولا يقتتلون لمصلحة حزب سياسي ، ولا يقرعون أبواب الوظائف ، إن تعلموا العلم تعلموه لله لا للشهادات ، وإن طلبوا المال طلبوه من التجارة لا من المضاربات والاحتكار والرشوات ، وإن أرادوا تسلية ولهواً ، قصدوا الربوة أو المزان أو الشاذروان ، ينصبون سماورات الشاي ، وسماط الأكل ، وبساط الصلاة ، لا يعرفون سينما ولا ملهى ولا ماخوراً ولا (نادي دمشق) ، المساجد ممتلئة بهم ، ومدارس العلم حافلة بأبنائهم ، والعلماء هم الأمراء ؛ طلبوا الآخرة لا الدنيا فأعطاهم الله الدنيا والآخرة ، والبيوت جنان الأرض ، والنساء حور تلك الجنان لا يعرفن التبرج ولا التكشف ولا يراهن أحد في الطريق ؛ إلا خارجات لضرورة لا بدّ منها ، ومعهنّ الزوج أو الأب ، يسبقهنّ وهنّ يتبعنه ، لا يعرفون بيوت الفجور ، ولا أماكن العصيان ، ولا (دوحة الأدب) ، ولا يخطر على بالهنّ أن الدنيا ستبلغ من الفساد أن سيكون فيها (فرق مرشدات) ...

كذلك كانوا فكانت أيامهم كلها أعياداً ؛ فأين أعيادنا نحن ؟

أربحنا من هذه المدنية ... وهذا العلم ... أم خسرنا ؟ سلوا هذه الحرب عما صنعته علومهم بسعادة البشر ، وسلوا التاريخ عما صنعت بها علومنا وشريعتنا ؟

يا سادة :

إننا صرنا اليوم نلبس (البذلة) بدل (القنباز) ، وننام على السرير ، ونأكل بالشوكة والسكين ، ونقرأ أخبار أمريكا وأوربا ونتكلم في الجغرافيا والكيمياء وفي السياسة ، ونركب السيارة والطيارة ، ونسمع الراد ونبصر أفلام السينما ، هذا الذي ربحناه ولكنا خسرنا التقى والعفاف والاطمئنان ، لقد كان أجدادنا أبعد عن حضارة أوربا ، ولكنهم كانوا أرضى لله منا ، وأقرب إليه ، وكانوا أقوم أخلاقا ، وأطهر قلوباً ، وأصفى سرائر ، وأصدق معاملة وكانوا أسعد منا في الحياة .

لا يا سادة : إني لم أعد أجد للأعياد بهجة ، فردوا إليّ ماضيّ ، أرجعوني إلى عيد الصرماية ، والمقبرة ، والمسجد ، فإني لم ألق السعادة إلا فيه ، أنقذوني من هذا العلم وهذه الحضارة ، فأنا جامد ، أنا رجعي ، رجعي ، رجعي ! !

والعفوَ يا سادة : لقد نغصت عليكم بهذا الحديث القاتم المضطرب عيدكم لقد نسيت قواعد الآداب الاجتماعية فكدرتكم يوم الصفاء ، وكنت عندكم فاسد الذوق سيء الاختيار ، فلا تؤاخذوني ... واقبلوا على عيدكم وسروركم ، ودعوني أبكي يوم العيد ماضيات أيامي . وكل عام وأنتم بخير !

علي الطنطاوي

مدارس للسخط ... ؟ !

للأستاذ سيد قطب

قال لى صاحبى : أما تفتأ هكذا ساخطاً على جميع المظاهر والأوضاع ؟ أرح أعصابك يا أخى ، ودع الخلق للخالق . إنه لا فائدة . لا فائدة من كل هذه الصرخات ! ! !

قلت لصاحبى : أما أنا فسأظل ساخطاً ، أعلن سخطى على كل شائه من المظاهر والأوضاع . ولن أدع الخلق للخالق ، لأن الخالق هو الذى يقول : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » ويصف قوماً ضعفوا واضمحلوا فيقول عن سبب الاضمحلال : « كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون ! » وأما أنه لا فائدة هناك ، فأنا لست يائساً ولا متشائماً ، واعتقادى الكامل أن هذا الكون الوسيع لا يضيع صوتاً واحداً ينطلق فيه بدعوة الحق ، ولا بد أن يردد صدى هذا الصوت فى يوم من الأيام ، طالت أو قصرت به الأعوام .

وقلت لصاحبى : إنه لو وكل إلىّ الأمر لأنشأت ضعف هذه المدارس التى تنشئها الدولة لأعلّم فيها هذا الشعب شيئاً واحداً هو السخط ! السخط على الأوضاع والمظاهر الشائهة التى تسيطر على حياة هذا الجيل فى كل اتجاه . فالسخط هو دليل الحيوية الكامنة ، والرضى بهذه الحال المائلة هو نوع من اليأس والتشاؤم يقتل الأمل أو يؤدى بها إلى الاضمحلال .

أجل ، لو وكل إلىّ الأمر لأنشأت مدرسة للسخط على هذا الجيل من رجال السياسة فى هذا البلد ، أولئك الذين يتخاصمون فيتشاتمون ، ويتهم بعضهم بعضاً بكل كبيرة : بالخيانة . بالرشوة . بفساد الذمة ... إلى آخر هذه الجعبة من الشتائم والتهم النكراء ، حتى إذا ارتفعت لهم تلك العصا السحرية ، عصا دار الحماية التى هى دار السفارة ، أو دار السفارة التى هى دار الحماية ، نسوا كل ما قيل ، واتحدوا وائتلفوا ، وصافح بعضهم البعض ، وابتسم بعضهم لبعض ، وأثنى بعضهم على بعض ، والشعب ينظر ويعجب : إما أن يكون الجميع كاذبين فى الماضى ، وإما أن يكون الجميع كاذبين فى الحاضر ، وهم فى كل حال لا يؤمنون على مصير هذا الوطن ، وتلك ذممهم وهذه ضمائرهم ... كلهم جميعاً بدون استثناء !

ومدرسة للسخط على أولئك الكتاب والصحفيين ، الذين يقال عنهم إنهم قادة الرأى فى البلاد ، وإنهم آباء الشعب الروحيين ، أولئك الذين يسخرون أقلامهم وذممهم وضمائرهم لهذا الجيل من الساسة ، فيضربون بأقلامهم ذات اليمين وذات الشمال ، وينهشون سمعة هذا السياسى أو ذاك ، ثم يعودون فيبيضون ما سودوا ، وقد يقفون مادحين فى حفلات تكريم تقام لأولئك الساسة الذين قالوا عنهم من قبل : إنهم مجرمون قذرون منحطون منخوبو الضمائر فاسدو الذمم ، لا استصلاح لهم بحال من الأحوال ! والشعب ينظر ويعجب : إما أن يكون هؤلاء القادة الروحيون كاذبين فى الماضى ، وإما أن يكونوا كاذبين فى الحاضر . وهم فى كل حال لا يؤمنون على قيادة الشعب الروحية ، وتلك ذممهم وهذه ضمائرهم بين حال وحال !

ومدرسة للسخط على أولئك الوزراء الذين تطول ألسنتهم وتطول أقلامهم وهم يتطلعون إلى الكرسى المسحور ، فتتفتق قرائحهم عن خطط وبرامج للاصلاح الاجتماعى ، وللنهضة الفكرية وللقضية الوطنية ، ولإصلاح أداة الحكم ، ولتطهير الدواوين ، ولمكافحة اللجان .. إلى آخر ما تهديهم إليه اللهفة على ذلك الكرسى المسحور ، حتى إذا جلسوا فى ذلك الكرسى ، ندّ عنهم جميع ما أعدوا من خطط ، وما نسقوا من برامج ، ونفث فيهم ذلك الكرسى اللعين سحره الذى يعمى ويصم ، ويفسد الذمة ، ويكبت الضمير ... ثم يطيح به الكرسى اللعين فيصحو من سبات ، ويجد له بعد ذلك عيناً يفتحها ولساناً يديره لإعادة الاسطوانة من جديد ! والشعب ينظر ويعجب : إما أن يكون هؤلاء كاذبين فى الأولى ، وإما أن يكونوا كاذبين فى الثانية . وهم فى كل حال لا يؤمنون على مصالح هذا الشعب ، وتلك ذممهم وهذه ضمائرهم فى جميع الأحوال !

ومدرسة للسخط على أولئك الباشوات وغير الباشوات الذين يلحقون بعضوية الشركات ليكونوا ستاراً لهذه الشركات فى استغلال الشعب واستغفاله ، ثم يدعون أن الشركات إنما قدرت فيهم الكفاية الممتازة « ما يأكلون فى بطونهم إلا النار » !

. ومدرسة للسخط على أولئك « الأرستقراط » الذين يعلمون من هم ، ويعرفون ينابيع ثروتهم أو ثروة آبائهم وأجدادهم ، ونصفهم يعلمون أن أصلهم القريب جارية أو معتوقة ، ونصفهم الآخر – إلا عدداً يعد على الأصابع – يعرفون أنهم هم أو آباؤهم أو أجدادهم على أكثر تقدير أدوا ثمن هذا الثراء أعراضاً أو خدمات لا يقوم بها الرجل الشريف للاحتلال ولغير الاحتلال ...

ومع هذا كله يزمون أنوفهم اشمئزازاً من « الفلاحين » ومن « أبناء الشعب » على وجه العموم ، لأنهم ليسوا من « أولاد الذوات » وليسوا « أرستقراط » ! والشعب ينظر ويعجب : أكان حتماً على هذا الشعب كله أن يكون أبناء جواري ومعاتيق ، أو أن يقوم بخدمات لا يقوم بها الشرفاء للاحتلال وغير الاحتلال؟

ومدرسة للسخط على أولئك الذين ليسوا « أرستقراط » ، إنما هم من أبناء الشعب ، علمهم الشعب ، وارتفع بهم إلى مقاعد الوزارة وغير الوزارة ، وقد يكونون ممن تعلموا بالمجان لضيق ذات اليد والعجز عن أداء نفقات التعليم ، ثم هم بعد ذلك يتسخطون على « مجانية التعليم » ، لأنها تزحم المدارس بأولاد الفقراء ، ولأنها تمزج بين أبنائهم وأبناء الفقراء ، ولأنها تعلم أولادهم أخلاق الفقراء !

« يا دم » ! باللغة العامية الفصيحة ! شيئاً من الحياء يا هؤلاء ! شيئاً من الاعتراف بالجميل للشعب صاحب الجميل ! !

وتنشئ الدولة مدارس خاصة لأبناء الأغنياء ومن يتشبهون بالأغنياء ... لماذا ؟ لأنهم مالوا بأبنائهم إلى المدارس الأجنبية فراراً بهم من أبناء الشعب في المدارس المجانية ! !

وما ذا على الدولة وما ذا على الشعب حين يذهب هؤلاء إلى الجحيم لا إلى المدارس الأجنبية ؟ إنه لا خير فيهم لهذا الشعب هنا أو هناك ! إنهم خوارج عليه لأنهم يتبرأون منه . فليذهبوا حيث يشاءون ، ولتسر الدولة في الطريق المرسوم لتعميم المجانية ، فهو طريق إجباري مهما عارض فيه المعارضون ، لأن المستقبل لن يسمح بفوارق الطبقات !

ومدرسة للسخط على محطة الإذاعة ، تلك المحطة التي تنقل ما في المواخير والصالات ، وما في الأفلام السينمائية ، وهي لا ترتفع عن المواخير والصالات ، تنقله إلى كل بيت ، وإلى كل سمع ، شاء من في البيوت أم أبوا ، ورضي الناس أم كرهوا ، ولا تدع هذا الهراء القذر محدوداً في الصالة أو الفيلم يراه من يشاء ، ويذهب إليه من يشاء ، بل تفرضه فرضاً على البيوت ، حتى إذا كان فيها بقية من إنسانية أو حياء ، قضت على هذه البقية الباقية من الإنسانية ومن الحياء ، وهي تصنع كل يوم هذه الجريمة وتنفق عليها من جيب هذا الشعب الذي تفتت كيانه في كل لحظة من اللحظات !

ومدرسة للسخط على تلك الصحافة الداعرة ، التي تسمي نفسها « صحافة ناجحة » لأنها تنادي الغريزة الحيوانية وتستثيرها في كل سطر وكل صورة ، وهو عمل رخيص لا يحتاج إلى براعة صحفية ، عمل يقوم به مديرو المواخير فيطاردهم بوليس الآداب في كل مكان ! ودع عنك ما يقوم به بعض هذه الصحف من دعاية للاستعمار ولخدام الاستعمار ، وما يثبطون به عزائم المصريين كلما هموا للجهاد في سبيل قضيتهم الكبرى . وما كانت هذه الصحف في حاجة إلى تلك الدعاية السافرة أو المستترة ، فهي بما تنشر من صور داعرة ، وبما تثير من غرائز هابطة ، تقتل في الأمة كل نخوة وكل شرف وكل قوة ، وتهيئها للاستغراق في لذائذ حيوانية ، لا تسأل بعدها عن وطن ولا عن استقلال !

وأخيراً مدرسة للسخط على هذا الشعب الذي يسمح بكل هذه « المساخر » ، ويتقبل كل تلك الأوضاع ، دون أن ينتفض فينبذ هؤلاء وأولئك جميعاً ، وينفض يده من رجال السياسة المضللين ، ورجال الأدب والصحافة المأجورين ، ورجال الحكم المدلسين ، ومن الأرستقراط والمتسقرطين ! ومن دعاة المواخير : في محطة الإذاعة ، وفي السينما ، وفي الصحف ، وفي المواخير !

مدارس للسخط ! ما أحوج الشعب منها إلى الكثير ، إنه لأحوج إليها من الطعام والشراب . . فمن ينشئها ؟ !

أينشئها هذا الجيل من الشباب المائع المسترخي إلا النادر القليل ؟... كلا ! إنما تنشئها الأقلام المخلصة ، الأقلام التي تواجه الحقائق ، ولا تنفر منها ، ولا تخشى عاقبة الجهر بها ، الأقلام التي لا تيأس ولا تمل ، ولا تؤمن بأنه لا فائدة !

وإنها لفريضة على كل صاحب قلم ، ولن تضيع صرخة واحدة في الهواء ، فالهواء أحفظ للأصداء ، والأجواء حفية بالدعاء ، ومن لم توقظه الدعوة ، فلتوقظه الصيحة...

ولا يأس مع الحياة !

سيد قطب

الحلم والتحلم ...

للأستاذ محمود عزت عرفة

— ١ —

« إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ، ومن يتخير الخير يعطه ، ومن يتوق الشر يوقه »

حديث شريف

لا ينهض رواج الرذيلة فى هذا العصر المادى دليلا على رجحان كفتها فى ميزان الأخلاق ، إذ ما يزال للفضائل القِدح المعلى ، ولا يزال الفضلاء — على قلة فيهم وضعف — أقدرَ الناس على الجهر بالدعوة إلى مذهبهم ، وأقومهم بالحجة فى الإبانة عن صحة مأخذهم ... وحسب الرذيلة من ضَعة أنها مقرونة أبداً بالتوارى ، محجبة بقناع التخفى ، لا تحيا إلا فى مدلهم من الظلام ، ولا تنشط إلا على غفلة من العقل ، وغفوة من سلطان الضمير .

والخلق النفسى قسمان : فطرى وكسبى . وليس للناس من أمر الخلق الفطرى شىء إلا أن نشكر واهبه على ثمرات خيره ، ونستعيذ به من بائقات شره . أما الثانى ، وهو ما تتهيأ النفس لاكتسابه من صفات خلقية ، فذلك الذى يتسع معه مجال الحديث ، بل من أجله سنَّ الباحثون قوانين الأخلاق وقواعد السياسة والتربية ، وسائر علوم الاجتماع .

ولا يكاد يُتصور لهذه العلوم وجود إلا مع الاعتراف بأهمية الصفات الكسبية للنفس كدعامة من دعامتها ، وعنصر — بالغ الأهمية — من عنصريها .

ولقد أخذ ابن مسكويه[١] على منكرى « التطبع » قولهم ، وأبلغ — ولم يبالغ — فى تقدير الخلق الكسبى ، وما تتهيأ له النفس من قبول التحول ، والانصياع إلى ضروب التأديب والتهذيب . يقول فى فصل من كتابه « تهذيب الأخلاق » : اختلف القدماء فى الخلق فقال بعضهم : الخلق خاص بالنفس غير

(١) أبو على أحمد بن محمد ، توفى سنة ٤٢١ هـ .

الناطقة[١] . وقال بعضهم : قد يكون للنفس الناطقة فيه حظ . ثم اختلف الناس أيضاً اختلافاً ثانياً فقال بعضهم : من كان له خلق طبيعى لم ينتقل عنه[٢] . وقال آخرون : ليس شىء من الأخلاق طبيعياً للانسان ، ولا نقول إنه غير طبيعى . وذلك أنّا مطبوعون على قبول الخلق ، بل ننتقل بالتأديب والمواعظ إما سريعاً أو بطيئاً . وهذا الرأى الأخير هو الذى نختاره لأنا نشاهده عياناً ، ولأن الرأى الأول يؤدى إلى إبطال قوة التمييز والعقل ، وإلى رفض السياسات كلها وترك الناس همجاً مهملين ، وإلى ترك الأحداث والصبيان على ما يتفق أن يكونوا عليه بغير سياسة ولا تعليم ، وهذا ظاهر الشناعة جداً — انتهى قول ابن مسكويه .

ويقول الغزالى فى مثل هذا المعنى[٣] : لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ، ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حسنوا أخلاقكم ! وكيف يُنكر هذا فى حق الآدمى وتغيير خلق البهيمة ممكن ، إذ ينقل البازى من الاستيحاش إلى الأنس ، والكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك والتخلية ، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد ؛ وكل ذلك تغيير للأخلاق ؟ ه

وإذا نحن أدركنا هذا القول تسنى لنا أن نفهم الحكمة الجليلة التى ينطوى عليها قول الرسول عليه الصلوات : إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ، ومن يتخير الخير يُعطَه ، ومن يتوقّ

(١) يقسم ابن مسكويه القوى النفسية ثلاثة أقسام : القوة الناطقة ، وتسمى الملكية (العقل) ؛ والقوة الشهوية وتسمى البهيمية ، والقوة الغضبية وتسمى السبعية . ومعنى تخصيص الخلق بالنفس غير الناطقة أنه طبيعى وجبلى — أى غريزى — لا أثر فيه للدربة ولا للتفكير . وذلك هو الرأى المرجوح الذى يفنده ابن مسكويه والغزالى ، كما سترى بعد .

(٢) لعل أبا الطيب كان يأخذ بهذا المذهب حين قال :

وأسرع مفعول فعلت تغيراً تكلف شىء فى طباعك ضده

وقال :

وإذا الحلم لم يكن عن طباع لم يحلم تقدم الميلاد

وقال :

فقلما يلؤم فى ثوبه إلا الذى يلؤم فى غرسه
من وجد المذهب عن قدره لم يجد المذهب عن نفسه

وقال :

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل

(٣) جزء ٣ صفحة ٤٨ من سفر الاحياء (كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق)

الشر يُوقِّه . فالتحلم والتعلم والتبصر والتوقى والتورع والتصبر والتكرم والتعفف وغيرُها من هـذه الصفات التى تنطوى فى صيغتها على معنى التكلف إنما هى معدودة من أهم مقومات الخلق النفسى ومن أخطر العناصر فى تكوينه . وهى إلى ذلك وسيلة ميسورة إلى ترقى النفس فى مدارج الفضيلة واكتسابها ماحرمته بالفطرة من أسباب الخير . ثم هى مقوية للفضائل ومتقوية بها ، لما هنالك من واشج العلاقة بين القسمين . يقول أبو على القالى فى أماليه : العقل عقلان : فعقل تفرد الله بصنعه ، وعقل يستفيده المرء بأدبه وتجربته . ولا سبيل إلى العقل المستفاد إلا بصحة العقل المركب ، فإذا اجتمعا فى الجسد قوّى كل واحد منهما صاحبه تقويةَ النار فى الظلمة نور البصر .

الحلم والتحلم :

قال ابن مسكويه : الحلم فضيلة للنفس تكسبها الطمأنينة فلا تكون شَغِبة ، ولا يحركها الغضب بسهولة وسرعة . هـ

وواضح أن الحلم — كخلق فطرى — يؤدى إلى طمأنينة النفس . على أن هذه الطمأنينة من ناحيتها تكسب النفس صفة الحلم وتمكّن لها منه ، والحلم المكتسب هو (التحلم) نفسه . فطمأنينة النفس نتيجة للحلم وسبب للتحلم ، ومن هنا يصعب الفصل بين الخلقين ولكنه لا يستحيل ، لأن الحلم إذا جاء عفو الطبع ، وبدون تكلف له ولا تحامل على النفس فيه ، فالتحلم لا يكون إلا نتيجة مران وثمرة ممارسة ومعاناة . وليس من شك فى أن الأول يفضل الأخير ، كما يفضل الأصلُ الفرع ، ويشأو السابقُ اللاحق[1] .

والغزالى يردف التحلم « كظم الغيظ » ، فهما عنده شىء واحد يقل فى الرتبة عن الحلم ، ولكنه يتحول إلى الحلم نفسه بطول المجاهدة التى تُفضى إلى الاعتياد . فهذا الفيلسوف لا يكاد يتصور للحلم وضعاً إيجابياً أو مظهراً مستقلا ، إلا أن يكون صورة كاملة استوفت خطوطها وألوانها من مظاهر للتحلم توالت على النفس وتعددت صورها حتى استوت فيها خلقاً كاملا تصقله المجاهدة وتهذبه الدربة وفرط المعاناة ؛ وإليك عبارته[2] : « اعلم أن الحلم أفضل من كظم الغيظ ؛ لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم (أى تكلف الحلم) ، ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلا من هاج غيظه ، ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة ، ولكن إذا تعود ذلك مدة صار ذلك اعتياداً فلا يهيج الغيظ ، وإن هاج فلا يكون فى كظمه تعب ، وهو الحلم الطبيعى ، وهو دلالة كمال العقل واستيلائه وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل ، ولكن ابتداؤه التحلم وكظم الغيظ تكلفاً . »هـ

ويبدو أن ابن مسكويه كان أدق فهماً من الغزالى لحقيقة الحلم وموضعه من التحلم ، عند ما جعل الحلم خلقاً أساسياً فى بعض النفوس ، ثم أوضح إمكان اكتسابه بالمعالجة فيسمى حينئذ تحلماً . وهو يقول فى الكشف عن حقيقة الحلم: متى كانت حركة النفس الغضبية معتدلة ، تطيع النفس العاقلة فيما تقسطه لها ، فلا تهيج فى غير حينها ، ولا تحمى أكثر مما ينبغى لها ، حدثت عنها فضيلة الحلم ، وتتبعها فضيلة الشجاعة[1] ، ثم بيّن السبيل لبلوغ فضيلة التحلم عند فقد الحلم بقوله : من أنكر من نفسه مبادرة إلى غضب فى غير موضعه ، أو على من لا يستحقه ، أو زيادة على ما يجب منه ، فليقابل ذلك بالتعرض لسفيه يُعرف بالبذاء ، ثم ليتحمله ، وليتذلل لمن يعرف بالخيرية[2] ممن كان لا يتواضع له قبل ذلك .

على أن من الإنصاف للغزالى أن نقول : إنه كان فيلسوفاً (عملياً) فى مقارنته بين الحلم والتحلم ، فهو لا يكاد يعترف إلا بالتحلم أصلا وفرعاً ، لأنه محله التجربة ومظهر المجاهدة والمعاناة ، وفلسفة الغزالى الخلقية كلها تقوم على هذا الأساس . أما ابن مسكويه ففيلسوف (نظرى) عميق الفكرة ، يجرد الحلم أصلا قائماً بذاته ، ثم يلتقى مع الغزالى فى بسط قضية التحلم ، وبيان السبيل إلى بلوغه تكلفاً .

فمن المجاز إذن — لا الحقيقة — أن نقول مع الغزالى : إن كظم الغيظ واعتياد التحلم يصبح (حلماً طبيعياً) — وإن كانت هـذه العبارة هى أفضل ما يجرى على لسان مربٍّ يعنى

---

(١) أى فى مجرد السبق فى الوجود والتقدم فى الكون .

(٢) إحياء علوم الدين ج : ٣ ، ص : ١٥٣ .

(١) يعنى أن كبح القوة الغضبية ينتج الحلم ، واستعمال هذه القوة فى وجهها ينتج الشجاعة .

(٢) هكذا وجدتها (بالخيرية) ولعلها تصحيف لكلمة (بالجبرية) .

بتهذيب الأخلاق وهداية الناس إلى سبيل الفضائل ، بتيسير وسائلها لهم ، وتهوين مشقة إحرازها عليهم .

فضيلة الحلم :

بان الحلم إذن بفضل له ومزية ، وطال على التحلم قدر ما يطول أصل على فرع ، وأول — فى الكون — على أخير . وما ثمة شك فى أن الحلم أثبت على تتابع الثيرات ، وأبلغ فى الدلالة على كرم النفس ، وصفاء مواردها من نبع الفضيلة . وليس يتصل الحلم بنفس إلا وقد تم لها إلى جانبه حظها من التحلم ، إن لم يكن فى الأول الغناء كله عن الثانى . والنفس بعدُ من نتيجة التحلم على شك ، تسمى إليه فتبلغ حيناً وتقصر أحياناً ، وإنها لتلقى فيه من البلاء ما يضجرها منه مرة ، وقد يصرفها عنه أخرى .

وأين فى الناس مثل عمر الذى كان يبلغ بالتحلم حد الحلم دون مجهود ، حتى ليلقى الرجل السكران مرة فيزمع أخذه وتعزيره ، ويشتمه السكران فيرجع عنه ، ثم يُسأل عن ذلك فيقول : إنه أغضبنى ، ولو عزَّرته لكان ذلك لغضبى لنفسى ، ولم أرد أن أضرب مسلماً حمية لنفسى ؟ !

وفى كتاب الإحياء أن أشجَّ عبد القيس وفد على النبى صلى الله عليه وسلم فأناخ راحلته ثم عقلها ، وطرح عنه ثوبين كانا عليه ، وأخرج من العيبة ثوبين حسنين فلبسهما ، وذلك بعين رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى ما يصنع . ثم أقبل يمشى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام : إن فيك يا أشج خلقين يحبهما الله ورسوله . قال : ما هما بأبى أنت وأمى يا رسول الله ؟ قال : الحلم والأناة ! فقال : خلتان تخلقتُهما ، أم خلقان جُبلت عليهما ؟ فقال : بل خلقان جبلك الله عليهما . فقال : الحمد لله الذى جبلنى على خلقين يحبهما الله ورسوله . فقد كان رسول الله عليه الصلوات إذن أعلمَ الناس بفرق ما بين الحلم والتحلم ، وبُعدِ ما بين الطبيعة والتطبع ، وإنه ليتدح صاحبه — فيثلج قلبه ، ويستحمده ربه — حين يجيبه عن سؤاله بقوله: بل خلقان جبلك الله عليهما !

هذا ، والحلم سيد الأخلاق — كما يقولون — لأنه السجية النبيلة التى لا تليق إلا بالملوك والأمراء ، ولا تأخذ أروع زينتها إلا حين يصطنعها السَّراة والوجوه وأعيان الناس . رُوى أن علياً (عليه الرضوان) سأل رجلا من أهل فارس عمن كان أحمد ملوكهم سيرة . قال : أنو شروان . فقال على : أى أخلاقه كانت أغلب عليه ؟ قال : الحلم والأناة . فقال على : هما قِوام الملك ، نتيجتهما علو الهمة !

ولقد بلغ بعض الملوك والرؤساء من الحلم مبالغ تثير الدهشة وتستخرج العجب ؛ وليس يعزى هذا إلى طبيعة فيهم بأكثر مما يعزى إلى الظروف التى أحاطت بهم . ونحن نحب أن نقف قليلا عند بعض من طارت شهرتهم بالحلم ، وأخذوا من التحلم بأسباب قوية ، فنتبين مظاهر هذين الخلقين فيهم ، ونلمس البواعث عليهما ، والمقاصد الخفية أو الظاهرة الدافعة إليهما ...

(يتبع) **محمود عزت عرفة**

الأدب في سير أعلامه :

ملـــتن ...

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع أناشيد الجمال والحرية والخيال ..]

للأســـتاذ محمود الخفيف

— ٣٦ —

في ميدان السياسة :

وعاب خصوم ملتن عليه قبوله منصباً في حكومة مغتصب جمع السلطة كلها في يده ، وقالوا كيف يفعل هذا نصير للحرية ، واستخرجوا من ذلك أن دفاعه عن الحرية لم يكن إلا زعماً فحسب ؛ بل وذهبوا إلى أكثر من هذا فرموه بالتبجح أو بالغفلة إذ يحل لنفسه من التعصب ما يحرم مثله على غيره فهو في منصبه يرد على مخالفي الحكومة ، ويعنفهم ويسخر من آرائهم ، وماذا يكون التعصب إن لم يكن فعله هذا تعصباً ؟ ويزيدون على هذا أنه إن جاز ذلك من ذي جهالة ضيق الأفق فهو لا يليق من رجل يزعم أنه يتحلى بالأدب وينتسب إلى الفن ...

وهذا كلام يشبه بادي الرأي أن يكون حقاً ، ولكنه لا يلبث عند رده إلى الواقع والاعتبار في أحكامه أن تتزايل عنه شبهة الحق ؛ فأما عن التعصب في ذاته عيباً ، بل إن التعصب للرأي محمدة ما دام يؤمن المرء بما يقول ، ويشعر أنه يدافع عن حق ، والمعول هنا على نيته لا على خطئه أو صوابه ، فإن لم يتبين حقيقة ما ينطوي فمدار الحكم على القضية التنازع فيها ، ويستحيل أن يخفى وجه الحق في قضية يتناولها متخاصمان يبذل كلاهما أقصى جهده في إثبات ما يحاول الآخر نفيه ، أو نفي ما يعمل خصمه على إثباته . طالما أن الوقائع غير خافية ، وكان الأمر أمر اعتبار وتدبر ورد إلى قواعد مقررة ؛ فإن جهل الخصمان بعض الوقائع أو جهلاها كلها انتفى التدليس عنهما جميعاً ، وإن غابت عن أحدهما كان الثاني هو المدلس ، وإن لم يمكن اتهامه بالتعصب حتى يتبين تدليسه ؛ وإنما يكون التعصب مذمة إذا أسر المرء على رأيه وهو يعلم كما يعلم خصمه أنه باطل . أو إذا تبين له وجه الحق فكبر عليه أن يرجع إليه وتمادى فيما انساق فيه أول الأمر بجهالة .

وكان ملتن يؤمن أن حكومة كرمول تنصر الحق والحرية فالدفاع عنها دفاع عنهما ، ولا عبرة عنده بشكل الحكومة الاستبدادي ، وقد تحقق له ما كان يتمناه من نتيجة ، وطالما كان يؤمن ملتن دون أن يعميه غرض خاص بعدالة كرمول ، وبعده عن المطامع الذاتية ، وإباحته الحرية للناس فليس يعيبه أن يتعصب له ، وإنما يلحقه العيب إذا تبين له تحرف كرمول عن الصواب في أمر وتحيزه لرأيه وظل على ولائه له ؛ وما فعل ملتن شيئاً من ذلك . بل لقد عارض كرمول ، وأنكر من تصرفاته ما سيأتي بيانه في موضعه ...

واتخذ ملتن أهبته للدفاع عن الحكومة في كل موقف تحتاج فيه إلى الدفاع ، وكانت أول خطوة له في هذا المضمار الطويل ذي المسالك الوعرة ما كتبه بعنوان « ملاحظات » في صدد صلح كلكني الذي عقده كرمول مع الأرلنديين ، فأخذ عن عليهم ملتن بما يلقون من عدالة وتسامح ما كانوا ليظفروا بمثلها على يد شارل ، وقد حسن وقع هذه الملاحظات في نفس كرمول ، ونفوس أعضاء حكومته وأنصاره .

وكانت حكومة كرمول في أشد الحاجة إلى مثل هذا الثناء فهي في الواقع تستند إلى أقلية الشعب ، وتعتمد في بقائها على الجيش المنتصر ، وعلى شخصية كرمول الذي لقب حامي الجمهورية وإن كان ملكاً في حقيقة الأمر ينقصه التاج ؛ وكانت أغلبية الشعب قد أسخطها القضاء على الملكية ، وبات الناس يتوجسون خيفة من انفراد كرمول بالسلطة على هذا النحو دون البرلمان ، وأخذ البرسبتيريتز في داخل البلاد يكرهون هذه الحكومة إلى الناس خفية ، بينما كان الرأي العام في أوربا يعلن استنكاره وسخطه عليها ...

وفي شهر أغسطس سنة ١٦٤٩ نشر في الناس كتاب غفل من اسم مؤلفه عنوانه « إيكون باسيليك — صورة جلالته القدسة في عزلته وآلامه » ؛ وتلقفت الأيدي هذا الكتاب ، وكان الناس قد أحزنهم وآلمهم إعدام الملك على الرغم مما كان

من طغيانه وعقد ألسنتهم الرعب والدهشة ؛ وسرعان ما نفدت طبعته فأعيد طبعه وأعيد حتى لقد بلغ خمسين مرة فى تلك السنة ، وذهبت الظنون بالناس كل مذهب من يكون مؤلف هـذا الـكتاب ، وشاع فيهم أنه من وضع الملك نفسه كتبه قبيل إعدامه ؛ وقد ادعى تأليفه فيما بعد أحد رجال الدين واسمه دكتور جودن وتقرب به إلى الملكية العائدة ، وزعم أنه اعتمد فى تأليفه على مذكرات كتبها شارل بخطه فى أخريات أيامه ؛ وخلاصة الـكتاب أن الملك ذهب ضحية العدوان والبطش وقد ظل مؤمناً بربه صابراً حتى قتل مظلوماً .

ومهما يكن من أمر تأليفه فقد ذاع الـكتاب فى الأمة على نحو لم يعرف الناس له شبيهاً من قبل ، وهال الحـكومة الأمر فتلفتت تبحث عمن يرد عنها هذه الوجة العاتية ، وفـكرت فى أول الأمر فى سـلدن وكان من أشهر رجال عصره مهارة وعلماً ، ولـكنها اتجهت أخيراً إلى ملتن .

وما أهل أكتوبر حتى كان ملتن على الرغم مما كان يعانى من ضعف بصره قد ردّ بكتاب بلغ نيفاً ومائتين وأربعين صفحة ، سماه « إيكون أوكلاستِيسى » أى محطم الأيقون ؛ وفيه استعرض ما جاء فى ذلك الـكتاب فصلا فصلا وأخذ يفند كل رأى فيه ويسفه كل حجة فى بلاغة وتحمس وتدفق على نحو ما فعل فى خصوماته وردوده السالفة ...

وقد افتتح ملتن كتابه بقوله إنه مما يحمل بالمرء أن يتعقب مساوىء رجل هوى من مثل تلك المنزلة العُليا التى تبوأها شارل وبخاصة بعد أن دفع ثمن ما اقترف ، ولـكن كتابه على الرغم من هذه الفاتحة لم يغادر صغيرة ولا كبيرة مما فعل شارل إلا أحصاها ، ثم راح يعيب على هؤلاء الذين يمجدون ذكرى هذا الملك الذى صنع بحرية بلاده ما لم يصنعه فى انجلترة ملك قبله ؛ ورأى أن الذين يفعلون ذلك إنما يبرهنون به على أنهم غير جديرين بالحرية التى حاربوا من أجلها وأخلق بهم أن يعودوا إلى الأغلال فمثلهم كمثل عدد من الوحوش الثائرة المقتتلة لا تسكن حتى تكبل أرجلها وتغل أعناقها ، وتنم هذه اللهجة القاسية عن مقدار حنقه على من أحزنهم إعدام شارل ، والـكتاب فى جملته وفى روحه العامة لا يعدو كونه مجادلة حزبية وخصومة جامحة لا كما تكون الخصومات فى الرأى بين العلماء ولذلك فهو لا يشرف رجلا مثل ملتن إن لم يك كفيلا بأن ينتقص من قدره ...

من أجل هذا لايسع المرء إلا أن يحس أسفاً عميقاً لانصرافه عن الشعر والفن فذلك ماخلق له ، أما هذه الخصومات السياسية وما ينفق فيها من جهد ويحتمل من عناء فما أقلها عَوْداً إلا على الذين طلبوها ليحتموا بها ، وما أثقلها وأرذلها وقعاً فى نفوس الذين يقدرون ملتن حق قدره كشاعر ، والذين تهفو قلوبهم إلى أمثال ما غنى من قبل من ألحان بلغ بها ذروة الإجادة ، وتجاوز بها أقصى ما بلغه شاعر من سحر الفن .

ويحلوا لخصوم ملتن أن يأخذوا عليه مأخذين يتصلان بالأدب والفن فى كتاب إيكون أوكلاستسى ، فأما أولهما فقد نسبوا إليه أنه تهكم على شارل أن جعل وليم شكسبير قرينه المقرب فى عزلته آخر حياته ، وأما ثانى المأخذين فقريب من الأول وخلاصته أن ملتن تزمت تزمت البيوريتانز خصوم الفن إذ يعيب على الملك أخذ فقرة من قصيدة أركاديا لسير فيليب سدنى فجعل هذه الفقرة صلاته ، ويرى أنه مما يشين الملك أن يتخذ صلاته من قصيدة كهذه وإن كانت لها فى ذاتها قيمتها وبراعتها فى ساعة عصيبة كالتى كان فيها ، ويصف ملتن تلك القصيدة كأثر فنى بأنها من قصائد الحب العابثة .

ويرى مارك باتيسون أن المأخذ الأول لا أساس له وإنما جرده إلى سوء الفهم، فما سخر ملتن من شارل وإنما كان يقتبس ملتن فقرة من مسرحية ريتشارد الثالث لشكسبير يوضح بها معنى يريده . فذكر فى صدد ذلك أنه لا يقتبس من كاتب ممن لا يحسن الملك مصاحبتهم ، وإنما يقتبس ممن يعرف الجميع أنه كان رفيقه المقرب فى عزلته ألا وهو وليم شكسبير .

ولـكن باتيسون لا يعنى ملتن من المأخذ الثانى ، ويقول إن فيه شاهداً على أن مؤلف الأليجرو قد تأثرت الناحية الفنية فيه تأثراً غير قليل بما اندفع فيه من الخصومات الدينية والسياسية وإلا فـكيف يحقر قصيدة كهذه فينسبها إلى العبث واللهو .

وما كاد يستريح ملتن من عناء رده حتى وجد نفسه كما وجدت الحـكومة نفسها تلقاء هجوم آخر لا يقل عنفاً عن سالفه ويزيد عليه فى سعة انتشاره ، وما أحدث فى أوربا وفى انجلترة من قوة

الأثر وشدة الدوى ؛ وقد انبعثت هذه الصيحة من هولندا هذه المرة فى كتاب ألفه باللاتينية علم من أعلام الأدب الأفذاذ هو الأستاذ سلامَسْيُسَ أحد رجال جامعة ليدن وجعل عنوانه : « دفاع عن الملك شارل الأول » .

وبيان ذلك أن شارل الثانى كان يعيش فى مدينة هيج ، وكان على مقربة منه سلامسيس فى جامعة ليدن، وكان هذا الأستاذ أقدر معاصريه على الكتابة باللاتينية لغة العالم يومئذ كما هو الحال فى الفرنسية اليوم ، فاستمانه شارل ليدافع عن أبيه ، وقبل سلامسيس ذلك عن طيب خاطر لأنه كره إعدام الملك فى انجلترة كرهاً شديداً .

وكان الأدباء القادرون على الكتابة ، وعلى الأخص كتابة اللاتينية عدة الملوك والأمراء وذوى المكانة فى ذلك القرن، وكان لبضاعتهم سوق يعظم فيه الربح ، وكان لهم قدرهم وعظيم خطرهم لا عند الجمهور ولكن عند الحكام . فبهم يجتذب الرأى العام ولأقلامهم الشروعة مثل ما للسيوف من أثر أو كانت أبعد من ذلك شأنا ، وكان المتبع أن يستأجر الحكام هؤلاء الكتاب ليصنعوا لما تصنع الصحافة اليوم من دفاع وتهيئة للأذهان ، ونشر لما يراد نشره من الآراء .

وكان سلامسيس قمة من القمم الشوامخ تتنازعه الجامعات والعواصم ويحب البابا أن يستأثر به فيبقيه عنده فى روما ، بينما يعمل الملوك على إغرائه بزيارتهم والإقامة عندهم ، وكان هذا الرجل واسع الأفق ، قلما وجد نده فيما قرأ ودرس من الكتب ؛ لذلك كانت استجابته لشارل الثانى كسباً عظيما لهذا الذى يهمه الدفاع عن أبيه ، وقد كتب دفاعه ولم يأخذ عليه أجراً كما يرجح أكثر المؤرخين ، ونستطيع أن نتصور مبلغ ما أحدثه كتاب مثل كتابه من أثر فى انجلترة وفى أوربا ، كما نستطيع أن نتصور فداحة العبء الذى ألقى على عاتق ملتن وإن المرض ليخترم جسمه يومئذ وإن العمى ليتهدد ناظريه .

وصل كتاب سلامسيس انجلترة فى أواخر سنة ١٦٤٩ ، وسرعان ما أصدر مجلس الدولة قراراً يحرم تداوله ، وفى يناير سنة ١٦٥٠ انتدب ملتن ليكتب رداً على هذا الكتاب فما أهل شهر مارس حتى نشر ملتن ، وهو لا يكاد يقوى على فتح عينيه كتاباً عنوانه « دفاع عن الشعب الانجليزى » ، وقد ازدادت بهذا الكتاب شهرة ملتن فى أوروبا جميعاً وعظم قدره فى الأوساط الأدبية كلها ، وكانت دهشة الناس من شجاعته أكثر من إعجابهم بوطنيته فانه لم يحجم عن منازلة ذلك المارد الأوروبى سلامسيس ، وأن يجعل عدته اللاتينية ، وقد حسب خصمه أن لن يقدر عليه أحد ، فإذا به حيال قوة لا ريب فيها ، وفصاحة لا يستطيع أن ينكرها إلا الجاحدون .

احتشد ملتن لكتابه وبذل قصارى جهده على الرغم من إلحاح العلة عليه وطغيان الغشاوة على ناظريه ، ليظهر لأوربا أنه أعلى من سلامسيس فى اللاتينية كعباً وأطول منه باعاً ؛ ولقد بلغ فى كثير من مواضع الكتاب غاية ما تمنى ، ولكنه كان فى مواضع أخرى كالمتنى الذى يكلف نفسه ما لا تطيق ليأتى بخير ما عنده ، فما يعود من ذلك الجهد إلا بانقطاع نفسه واحتباس صوته ؛ ولقد وجد ملتن فى الرد على سلامسيس العظيم فرصة يلفت فيها أوربا إلى مقدرته ويقنعها بضلاعته وتمكنه واتساع أفق ثقافته ؛ لذلك أسرف فى التحمس وبالغ فى سوق العبارات الضخمة وتأنق وتمنق وتعالى وحلق ، وكان فى بعض المواطن إلى الخطيب الذى نسى نفسه أقرب منه إلى الكاتب الذى حذق فنه .

على أن ما بذل من طاقة فى هذا السبيل قد سبب له كثيراً من الضعف فى نواحى القياس والبرهان والاستيعاب والشمول والإحاطة بموضوع الدفاع وحسن ترتيبه وتسلسل سياقه ؛ هذا إلى أن اهتمامه باظهار عيوب سلامسيس وتصيد أخطائه وتعقب متناقضاته والسخرية منه قد صرفه كثيراً عن غايته ؛ ثم إن توجيه المطاعن الشخصية إلى خصمه وإسرافه فى ذلك إلى مدى من الفحش بعيد قد ألبس كتابه كثيراً من السخف والحق به غير قليل من الفسولة .

ولم يعف ملتن شارل الأول فى هذا الكتاب كذلك من التحقير والإهانة وهوفى لحده ، فشبهه بنيرون طاغية روما، ونسب إليه كثيراً من الفجور والفسوق واتهمه بتهمة نكراء هى دسه السم لأبيه ، إلى غير ذلك مما يبعد كل البعد عن اللياقة ...

وأنكر ملتن ما ادعاه الملوك لأنفسهم من حق إلهى ، فليس يستند هذا الزعم إلى أساس معقول ، ولا هو مما يتفق مع مايتصف

به الله من عدالة وحكمة ؛ فالله عدو الظلم ونصير الحرية ، وهو يحب الأحرار من عباده ويرفع منزلتهم ؛ وقد جاء المسيح لنصرة الحرية ، وإلا فهل يرضى الله أن تقوم الحكومات لتكون كل منها أداة للطغيان ، وكيف يقبل أن يفرض على الناس طاعة هذه الحكومات ويقر خضوعهم للظلم والبطش ؟ وما فعل الشعب الإنجليزي أكثر من ثورته على الطغيان وتقريره مبادئ الحرية ليعيش الناس في كنف هذه المبادئ آمنين مطمئنين لا يأتيهم الخوف من أي مكان ...

ويمجد ملتن حكومة كرمول وما فعلت في سبيل الحرية وما ظفرت به من نصر لن يظفر بمثله إلا الأمجاد الميامين أولو العزم والبطولة ، ولكنه يصارحها أنه لا تزال أمامها ما يقتضيها جهوداً وبطولة ليست أقل مما بذلت ، فعليها أن تقضي على ما يتهدد كيان البلاد من المساوئ الداخلية كالجشع والطمع وأنانية ذوي الثراء وبغيهم ، حتى يتمتع الناس بالسلام والأمن في كنف الحرية ؛ وتنطوي عباراته هذه على شيء من الوعيد يتهدد به خصوم الحكومة من طرف خفي ، فقد كان ملتن ضيق العطن بهؤلاء الخصوم شديداً عليهم يتمنى لو ابتلعتهم الأرض وسمهم وما يمكرون !

وسخر ملتن من شارل الثاني وسماه شارل الصغير وبالغ في تحقير دعوته سلامسيس للدفاع عن أبيه ونعت من التفوا حوله بأنهم حفنة من الصعاليك يتصايحون ولا هم لهم إلا التصايح والعواء

أما ما قذف به سلامسيس من مطاعن ، فقد تجاوز في ذلك كل حد ، فلم يتورع عن شيء مما يمس العرض والشرف ، ونال بسهامه زوجته وسخر منها كما سخر من زوجها ووصفه بأنه مطية لهذه الزوجة التي تملك زمامه فلا يملك لنفسه بين يديها ضراً ولا نفعاً ؛ هذا إلى ما رماه به من الجهل والغباء والغرور والادعاء والحمق والعبودية وما إليها من ألفاظ السباب ومرادفاتها مما نعجب كيف تسنى أن يصدر مثله من رجل كملتن فضلا عن أن يعد هذا دفاعاً عن قضيته ، ولكنها فيما يبدو طريقة ذلك العصر وأسلوبه في الجدل والخصام ...

وبلغ الغضب كل مبلغ بسلاميس ، ونال من نفسه فرح حاسديه لما أصابه أكثر مما نالت مطاعن ملتن ، فقد أشمت ملتن به الأعداء وأضحكهم منه ، وكان يبالغ هؤلاء الحاسدون في إعناته فيثنون على ملتن ويعجبون بعبقريته وضلاعته في اللاتينية وآدابها ، وانبرى فريق من محبيه يسفهون هؤلاء ويوجهون المطاعن إلى ملتن ؛ وبرز لهؤلاء أنصار ملتن فكالوهم صاعاً بصاع ، وهكذا تشعبت المعركة إلى معارك حتى كاد ينسى الدفاع عن شارل والدفاع عن الشعب الإنجليزي .

ونفس سلامسيس عن نفسه بكتاب ثان بلغ ثلثمائة صفحة ولكنه مات سنة ١٦٥٤ ، ولم ينشر كتابه إلا سنة ١٦٦٠ بعد عودة الملكية إلى انجلترة ، وقد نسي الناس هذا الموضوع ، ومن شاء أن يقف على مبلغ حنق سلامسيس على خصمه ، فليقرأ ما جاء في هذا الكتاب من مطاعن ، فقد كال لملتن بنفس كيله فهو عنده الأحمق المفتون الذي يظن في نفسه الملاحة ، وما هو إلا وحش قذر ، وإن خير ما يجب أن يصنع به هو أن يشنق على أعلى مشنقة ، ثم يوضع رأسه فوق برج لندن ، وأباح سلامسيس لنفسه أن يعير ملتن بما أصابه من عمى كأنما هو أمر يدخل في مسؤوليته ، ومما قاله في هذا الصدد نعته ملتن بأنه الرجل الذي لم تكن له بصيرة ، حتى فقد بصره كذلك ، وإن من أقبح الأمور وأرذلها أن يعيب المرء على خصمه عاهة لخلقته ولا يد له فيها وليس وراء ذلك سخف فيما نعتقد ، وما نظن إلا أن سلامسيس قد مسه الخبل من فرط ما ملأه من غيظ فطوعت له نفسه أن يقول هذا الكلام ، وهكذا احتدمت الخصومة بين الرجلين حتى قال هوبز : إنه عاجز عن أن يقطع أيهما كان أحسن لغة وأيهما كان أسوأ جدلا ؛ ويرى دكتور جونسون على الرغم من شدة وطأته ، إذ ينقد ملتن أنه كان أبلغ من سلامسيس . ويرى مثل هذا الرأي مارك پاتيسون ، ويزيد عليه أن ملتن كان أقوى فهما وأرجح عقلا من خصمه ، وإن كان على سعة اطلاعه أقل منه قراءة ومعرفة بالكتب ...

وقد مات سلامسيس بعد رد ملتن عليه بنحو ثلاث سنوات ، ومع ذلك فقد أذاع أنصار ملتن ومنهم ابن أخته أنه مات كمداً ، ومن أعجب الأمور وأدعاها إلى الأسف أن يقر ملتن هذا الزعم ويجعله من دواعي فخره ، وأنها لسقطة تحسب على الشاعر العظيم ، وكم نود لو أن تاريخه قد خلا منها ، فهي لا تقل عن سقطة خصمه ، إذ عيره بفقد ناظريه ...

(يتبع) الخفيف

بريطانيا وممتلكاتها الحرة

للأستاذ عبد الفتاح البارودى

لا تزال شركات الأنباء العالمية توافينا بآراء غريبة لساسة البلدان التى تسمى ممتلكات بريطانيا الحرة (Dominions) حول المسائل السياسية الكبرى . ووجه الغرابة – ولو فى أذهاننا وتصوراتنا – هو أن وجهة نظرهم لا تتقيد مطلقاً بوجهة نظر ساسة انجلترا ذاتها ، أى قد تختلف معها ، وهذا مما قد يتنافى منطقياً مع مجرد تبعيتها لها . لذلك يبدو من المهم لنا ونحن فى فترة نضج سياسى أن نلقى بعض الضوء على النظام البرلمانى فى الأمبراطورية البريطانية من هذه الناحية :

من المصطلح عليه أن النظام البرلمانى البريطانى من أكثر نظم الحكم السائدة الآن نجاحاً بدليل أنه فى خلال الثلاثة قرون الأخيرة لم يحدث أى انقلاب برلمانى فى الامبراطورية الشاسعة الأرجاء ، بينما حدثت انقلابات كثيرة ، بل ثورات دموية أحياناً فى كثير من أقطار العالم ، ومن بينها أقطار صغيرة المساحة والمتلكات والشعوب . ولا شك أن معظم هذا النجاح راجع إلى الصلات السليمة الوثيقة بين بريطانيا وممتلكاتها الحرة لسببين بسيطين :

الأول : أن شعوب هذه الممتلكات تمت غالباً إلى أصل بريطانى ، ولذا تهدف بالفطرة لغرض واحد هو الصالح الأمبراطورى العام .

والثانى : أن انجلترا تفهم معنى حرية الرأى بين شعوبها ، فأتاحت لها حكومات نيابية لا تقل قوة وقيمة وممارسة عن حكومة الدولة ، وتشرف عليها جميات عمومية منتخبة على هيئة برلمانات تشبه مجلس العموم كذلك ، وتقوم بأعمال مماثلة لأعماله ولها وسائلها الخاصة وأغراضها وذاتيتها المستقلة عنه ، ولا ترتبط معه إلا بعلاقات استشارية متبادلة .

غاية ما فى الأمر أن هذه العلاقات وطيدة ومحترمة ، وأهم من ذلك أنهم يعملون جميعاً على رعايتها وصيانتها وتنميتها بإخلاص لا حد له .

وليس أدل على ذلك من أنهم – تحقيقاً لهذا – أنشأوا لجنة دائمة تمثل كل أطراف المملكة المتحدة اسمها الجمعية البرلمانية الامبراطورية (The Empire Parliament Association) تسير طبقاً للائحة عامة (The Statute of Westminuster) ; وهى المرجع الوحيد لكل ما يتصل بالمتلكات الحرة . ومن الغريب أن هذه اللائحة التى تنظم الروابط بين وحدات الأمبراطورية ليس لديها القوة التنفيذية التى تجبر أى وحدة منها على عدم الانفصال عن الأمبراطورية إذا رغبت فى ذلك ! ومع هذا لم تتولد مثل هذه الرغبة بشكل جدى حاسم فى أى جزء من الأجزاء ، لا لشىء إلا لأن اللائحة أولا تتجنب كل مايتعارض مع مبدأ المساواة التامة بين الجميع . وثانياً توجه المجموعة بأكلها توجيهاً عاماً مركزاً حول الضرورات فقط ، ولا شأن لها بالتفاصيل التى قد يتشعب منها خلاف ما ، وهذا هو السبب فى أن كل جزء من أجزاء الممتلكات الحرة يخضع لنفوذ هيئة خاصة به تدير شؤونه وحدها كاتحاد أمريكا الشمالية فى كندا والاتحاد الاسترالى العام فى استراليا ، وهكذا فى جنوب أفريقيا ونيوزيلندة وأكثر من هذا ، فانه عند وضع « اللائحة » أصرت كل وحدة على إثبات رغبتها فى الاحتفاظ دائماً بحقوقها كقوة خارجية تكاد تكون أجنبية لا يربطها بالتاج إلا حق الولاء . وإذن لا نستغرب حين نعلم أن كل ما يربط بين نيوزيلندة وبين الأمبراطورية مثلا اتفاقية تسمى (The Merchant Shipping Agreement) لتنظيم الملاحة التجارية لا غير . وهكذا فى سائر الأجزاء ، لكل جزء رابطة خاصة به على حدة .

ويحسن هنا أن ننوه بأن كثيراً من البريطانيين حاولوا إدماج هذه المجموعات فى « بريطانيا الأم » ، أو ما يطلقون عليه (The Mother Country) ، وكانت أهم محاولة عملية فى عام ١٩١٠ عندما ألقى المستر إمرى محاضرة خاصة بذلك على مسمع من ممثلى الجمعية الأمبراطورية الملكية (The Royac Empire Society) ودعا إلى الاتحاد الشامل من جميع الوجوه ، وانتهز فرصة حفلات التتويج التى كانت تقام فى ذاك الحين ، وطالب بتمثيل البرلمانات الحرة فيها تمثيلا له صبغة رسمية ، وفعلا حظيت دعوته بنجاح يذكر كان من نتائجه عقب ذلك إنشاء لجنة تنسيق

مظاهر العبقرية في الحضارة الاسلامية

للأستاذ خليل جمعة الطوال

— ٤ —

دعوى باطلة :

ويظن بعض المعتدلين من المتعصبين على العرب أنه لم يكن للمسلمين من فضل على الحضارة إلا ما كان من حفظهم للثقافة اليونانية . فهم لذلك حفظة أكثر منهم مبتكرين ؛ والفساد في هذا الظن ظاهر كل الظهور . فإن المسلمين وإن نقلوا الكتب اليونانية ، وحفظوا الثقافة الأغريقية من الضياع حتى تسلمتها منهم أوروبا في العصور المتأخرة الحديثة ، واعتمدوها في بناء ثقافتهم ؛ فقد كان لهم إلى جانب ذلك كله مناح ثقافية خاصة بهم ؛ لم يعتمدوا بها على غيرهم ، وهم من ناحية ما أنشأوا وابتكروا قد تجلوا في سير الحضارة الأوربية الحاضرة . حتى لقد قال فيهم برنارد شو : « لو لم يكن المسلمون في التاريخ لتأخرت الحضارة عدة قرون ، ولما قطعت هذا الشوط العظيم إلا بعد أجيال طويلة والحق في هذا القول بيّن جلي ؛ فقد اتصل الأوروبيون بالمسلمين في الأندلس اتصالا عظيما ، وتتلمذوا على فلاسفتهم وعلمائهم ؛ وتأثروا بأساليبهم الفكرية إلى حد كبير ، حتى أن « ريموند » الذي كان مطرانا لطليطلة قد أسس في القرن الثاني عشر جمعية لنقل أهم الكتب الفلسفية والعلمية العربية إلى اللغة اللاتينية[1] وما زالت جامعات باريس حتى اليوم تدرس تلامذتها وطلابها منطق أرسطو المترجم من العربية إلى اللاتينية ، وتعتمد إلى حد كبير على شروح العرب وتعاليمهم على جميع الكتب الفلسفية الهامة التي ترجموها ، ولقد كان فردريك الثاني يعرف اللغة العربية فاطلع لذلك على الفلسفة العربية في مصادرها الأصلية ، وبلغ به حد التعجب بفلاسفة المسلمين أن أنشأ سنة ١٢٢٤ مجمعاً في نابولي

(١) الاسلام كامل في المدنية . بحث لأحمد أمين .

خاصة ظلت تعمل على تسهيل الاتصالات وتقريب وجهات النظر بدرجة محسوسة النفع .

وبعد الحرب الكوكبية ١٩١٤ — ١٩١٨ نمت الدعوة نمواً كبيراً إلى أن عقد لتنسيقها أول مؤتمر للمتلكات الحرة فيما وراء البحار في مقر اتحاد جنوب أفريقيا عام ١٩٣٤ . ثم عقدت بعد ذلك عدة مؤتمرات في مختلف أنحاء الأمبراطورية ، وأسفرت عن اتفاقيات ذات قيمـــة كاتفاقيات « أتاوة » المعروفة باسمها (Ottawa Aqreements) .

ولكن يظهر أن فكرة الاتحاد التام قد وصلت عند هذا الحد إلى نهايتها القصوى ، أي دون أن يحدث الاندماج المنشود ، بل بقيت كل المتلكات الحرة محافظة تمـاماً على استقلالها التقليدي ، وإن كانت وجهات النظر قد وضحت وتقاربت تقارباً يضمن عدم الانفصال ويضمن حتى عدم احتماله .

هذه هي على وجه الإجمال علاقة بريطانيا بمتلكاتها الحرة ، وهي علاقة يمكن اعتبارها انفصالية بمقدار ما هي اتصالية ، ومع هذا يتبادلون الرأي بإخلاص وثقة فيما يتعلق بمصالحهم المشتركة ، ويعملون معاً وقبل كل شيء على صيانة الأمبراطورية .

عجيب جداً هذا النظام ، وأعجب منه نجاحه الرائع . ولعله لا عجب إلا في أدمغتنا المتأثرة بشر أنواع الحزبيـة والفردية في الشرق المنكود .

وليس معنى ذلك أنه نظام مثـالي لا وجه لنقده ... فلكم تعرض في انجلترا ذاتهـا لمهاجات كثير من المفكرين أمثال (كارليل Garlyle) الذي كان يتساءل متهكما عما إذا كان من المستطاع تصـوره عقلا أن حوالي ٦٠٠ إنسان مهما بلغوا من الحكمة والحنكة والخبرة يمكنهم وحدهم أن يحكموا ويتحكموا في أكبر امبراطورية بنزاهة وعدم انحراف !

غير أن الواقع الذي لا تجدي فيـه المكابرة قد أثبت نجاح هذا النظام نجاحاً يعتبر نموذجياً إذا قيس بفشـل معظم النظم الأخرى وانهيارها ، حتى في البلاد التي أحكمت وضعها وتطبيقها كألمانيا وإيطاليا وغيرهما .

عبد الفتاح البارودي

لنقل العلوم العربية والفلسفة العربية إلى اللاتينية والعبرية ليطلع عليها جمهور المثقفين فى أوربا وبأمره أيضاً سافر ميخائيل سكوت إلى طليطلة وترجم شروح ابن رشد على أرسطو .

« وما كاد ينتهى القرن الثالث عشر إلا وجميع كتب هذا الفيلسوف المشهور قد ترجمت إلى اللاتينية ، وقبل ذلك بقليل : كانت قد نقلت إلى اللاتينية جهرة من كتب ابن سينا لتدرس فى باريس . ومما لا مرية فيه أن قادة الفكر الأوروبى الذين قاموا بحركة الثورة الفكرية العظيمة قد تأثروا بهذه الكتب تأثراً عظيما ، واستفادوا منها مادة جزلة ، وتدل التحقيقات الهامة أن روجر بيكون قد تثقف بالثقافة الأندلسية الاسلامية ، ودرس فلسفة ابن رشد واعتمد ابن الهيثم فى تأليف كتابه (البصريات)[١] .

وسنحاول فى الفقرات التالية أن نبين مواطن الابتكار فى الثقافة الاسلامية فى كل مبحث من بحوث العلم . فذلك أقرب إلى الاقناع ، وأوضح حجة فى دفع مفتريات الخصوم .

فى علم الرياضيات والفلك :

لقد أدى العرب إلى العلوم الرياضية خدمات جلى ليس من ينكرها إلا أن يكون مجانفاً للحق . فهم الذين وضعوا أساس حساب المثلثات ، ولولا العرب لبقى علم الجبر مجهولا فى العالم الأوروبى ؛ إذ وضعوا مبادئه ، وأقاموا أساسه ، وما تزال بحوثهم فيه حتى اليوم هى القاعدة الأساسية التى قام عليها ، وما زال الأوروبيون حتى الآن يعتمدون تآليف الخوارزمى الجليلة فى العلوم الرياضية إلى حد كبير ، ولقد عدل العرب كثيراً من كتب اليونان الهندسية والحسابية ؛ ولم يكتفوا فى ترجمتها بمجرد النقل الحرفى ، بل إنهم علقوا عليها شروحاً ضافية قيمة ، وما زال « الصفر » و « الكسور المشرية » و « نظرية الأسس » تحمل طابع العبقرية الاسلامية ، وتشهد بطول باعهم فى الابتكار والإبداع ، ومهما يفاخر الغربيون بعلمائهم ؛ فلن يجدوا فيهم من يدانى الكندى بغزارة علمه وكثرة بحوثه . فقد ألف هذا العالم الجليل ما يناهز المائتين والثلاثين (٢٣٠) كتاباً فى مختلف البحوث الرياضية ، والطبيعية ، والطبية ، والهندسية . يقول سيديليو : « إن مؤلفات الكندى تصطبغ بطابع العبقرية العجيبة[١] » ، وقد عده « كاردانو الإيطالى » من أشهر عباقرة العالم المشهورين .

ولقد جمع العرب بين مختلف العلوم الرياضية ، وأحسنوا تبويبها تبويباً علمياً صحيحاً ، وطبقوا الهندسة على المنطق ، واعترف بفضلهم على الجبر العالم المشهور (كاجورى) فقال : « إن العقل ليحار حيال مآثر العرب فى الجبر ... وإن حل المعادلات التكميبية بواسطة قطع المخروط لمن أعظم الأعمال التى قام بها العرب ... » .

ويعدُّ ابن البناء المراكشى فى الطراز الأول من مفكرى العالم الرياضيين . فقد ألف أكثر من ثمانين كتابا فى الرياضيات وعلم الهيئة ، وقد شهد بفضله معظم علماء أوروبا وخاصة « لالاند » و « سارطون » ، ومن كتبه المشهورة كتاب : « الحصار الصغير » و « رفع الحجاب » ، وقد ظلت أوروبا حتى نهاية القرن السادس عشر تدرس كتابه « تلخيص أعمال الحساب » فى مدارسها ، وقد حاز هذا الكتاب أيضاً اهتمام العلماء فى القرنين التاسع عشر والعشرين ؛ ويقول فيه سارطون : « إنه من أفضل الكتب التى وضعت فى الحساب » ، وقد بحث فيه الجذور الصماء والكسور المتسلسلة بحثاً وفياً ، وجعل العقل يقرب من فهمها بعد أن كانت عليه طلاسم وألغازاً . ومن مشاهير العرب أيضاً « البيرونى » وقد شهد بنبوغه وتفوقه العالم الألمانى « شاد » فقال : « إن البيرونى أعظم عقلية عرفها التاريخ » .

وأما فى تاريخ علم الهيئة والفلك فللعرب فيه صفحة مشرقة وآثار جايلة . يقول لامبرو[٢] : « إننا إذا أحصينا راصدين أو ثلاثة من الروم رحنا نعد الكثيرين من العرب فى هذا الفن » وأول من اعتنى من الخلفاء بهذا العلم الجليل وحض الناس عليه هو أبو جعفر المنصور .

قال الأستاذ نللينو : « وما اقتصر الخليفة المنصور على مجرد أحكام النجوم ؛ بل إنه منذ تأسيس بغداد بسنين قليلة قد بادر إلى إحياء علم الهيئة المحض » ، وبلغ من شغف المنصور بهذا العلم أن

(١) التاريخ العام للافيس وارمبو .

(١) تاريخ الرياضات .
(٢) الاسلام والحضارة العربية

كان يصطحب معه دائماً المنجم الفارسي المشهور « نوبخت »[١] واشتهر في زمنه المنجم الذائع الصيت « ما شاء الله »[٢] الذي ألف في الاسطرلاب ودائرته النحاسية « وأحمد بن محمد النهاوندي» صاحب الزيج «المستقبل» ، وفي زمن المأمون اشتهر يحيى بن أبي منصور صاحب الزيج المشهور ، وعلى بن عيسى ، وعلى بن البحتري وفي زمنه أيضاً أصلحت غلطات المجسطي لبطليموس ، وأنشىء أول مرصد على جبل قيون في دمشق ، وآخر في الشماسية في بغداد

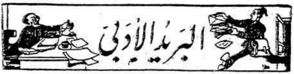
ومن علماء الفلك العرب المشهورين : ثابت بن قرّه ، والمهاني والبلخي ، وحنين بن إسحق ، والعبادي ، والبتاني الذي عدّه « لالاند » من المشرين فلكياً المشهورين في العالم ؛ ولو شئنا أن نحصي جميع علماء العرب الفلكيين لضاق بنا المقام ، وطال بنا الحديث ، وليست هذه الكلمة العجلى بالتي تتسع لذلك .

والعرب أول من أوجد بطريقة علمية صحيحة طول درجة من خط نصف النهار ، وأول من عرف كيفية الرسم على سطح الكرة[٣] ، وقالوا بكروية الأرض واستدارتها ؛ وبدورانها على محورها بعد أن كان يظن أنها منبسطة وثابتة ، وقد استطاعوا بفضل ما كان لديهم من الأدوات أن يحققوا طول محيط الأرض ومقدار ارتفاع القطب ، ودورة كرة الأرض المحيطة بالبر والبحر كما حققوا أيضاً طول البحر المتوسط الذي حققه بطليموس بـ٦٢ درجة فأرجعوه إلى ٥٤° أولا ثم إلى ٤٢° أي إلى مقداره الصحيح تقريباً ، وعملوا الأزياج الدقيقة والعظيمة النفع ، كما ضبطوا حركة أوج الشمس ، وتداخل فلك هذا الكوكب في داخل أفلاك أخر ، واكتشفوا بعض أنواع الخلل في حركة القمر واخترعوا الاسطرلاب ، والمربع ذا الثقب[٤] ، ورسموا خرائط للنجوم المنظورة مطلقين على ذوات القدر الأعظم أسماء عربية ، ووضعوا جداول للجاذبية النوعيـة ، وعرفوا حجم الأرض بقياس درجة سطحها[٥] ، وعينوا الكسوف والخسوف ، ووضعوا للشمس والقمر جداول صحيحة ، وقرروا طول السنة ، وعرفوا الاعتدالين وسبقوا غيرهم إلى اختراع «المواز» واستعمال الساعة الرقاصة ، وحسب البتاني الحركة المتوسطة للشمس في السنة الفارسية ، وميل فلك البروج على فلك معدل النهار فوجده ٢٣ درجة و٣٥ دقيقة ، ودقق في حساب[١] طول السنة الشمسية وفي حساب أهليليجية فلك الشمس ، فاستطاع أن يجد بعد الشمس عن مركز الأرض في بعديها الأبعد والأقرب ، وحقق مواقع كثير من النجوم ، وقال بعض علماء العرب بانتقال نقطة الرأس والذنب للأرض ، ورصد الاعتدالين الربيعي والخريفي ، وكتبوا عن كلف الشمس ، وأوحت بحوثهم في علم الفلك إلى كبلر أن يكتشف الحكم الأول من أحكامه الثلاثة الشهيرة وهي اهليليجية أفلاك السيارات[٢] وبالجملة « فقد طهروا هذا العلم من أدران المنجمين والخزعبلات وأرجعوه إلى ما تركه علماء اليونان علماً رياضياً مبنياً على الرصد والحساب والفروض التي تملل الظواهر والحركات الفلكية » .

(يتبع) **خليل جمعة الطوال**

(١) علم الفلك ص ١٤٢ — لكرلو نلينو .
(١) خلاصة تاريخ العرب ص ٢١٠ لسيديو .
(٣) كاجوري : تاريخ الرياضات ص ١٠٦ .
(٤) خلاصة تاريخ العرب ص ٢٣٣ — لسيديو .
(٥) الاسلام والحضارة العربية ج ١ لمحمد كرد علي .

(١) الرسالة ع ١١ السنة الأولى .
(٢) المقتطف مجلد ٣ ص ٦٠ .



لا غير :

إلى الأستاذ الشيخ عبد الرحمن القلهود فى طرابلس الغرب .

إذا لحن إمامان (لاغير) — ودعءلة التفحين — فقد غنى به وأجازه أئمة سميت طائفة منهم فى تلك (الجريدة) الطويلة وسردت مقالاتهم.

وإذا لم أجد نصاً عربياً قديماً تطمئن النفس إليه كل الاطمئنان فقد اطلع أولئك الأثبات الثقاة على مالم أطلع عليه أو رأوا — وكل واحد منهم أكبر من (مجمع لغوى) رجاله أربعون أو مئة — رأوا أن يقولوا فقالوا . وفى هذا اللسان القوى الجرىء المتقدم السائر مع الزمان ألوف من الكلمات والتراكيب المولدة . وأبناء العرب عرب وإن غير الدهر والبيئة سحناتهم ... وتلحين الامامين (السيرافى وابن هشام) أورده صاحب التاج ثم قال :

« ... فلا يكون — يعنى لا غير — لحناً ، وهو الصواب الذى نقلوه فى كتب العربية وحققوه » .

وبعد فها هو ذا الإمام ابن الحريرى الذى اعتاد — سامحه الله — تخطئة الصحيح يقول فى (الدرة) ص ١٥ : « ويقولون اجتمع فلان مع فلان فيوهمون فيه ، والصواب أن يقال اجتمع فلان وفلان ، لأن لفظة اجتمع على وزن افتعل ، وهذا النوع من وجوه افتعل مثل اختصم واقتتل ، وما كان أيضاً على وزن تفاعل مثل تخاصم وتجادل يقتضى وقوع الفعل من أكثر من واحد ، فمتى أسند الفعل منه إلى أحد الفاعلين لزم أن يعطف عليه الآخر بالواو لا غير » .

وروى الامام الرازى فى (مفاتيح الغيب) ج ٤ ص ٤٢٤ عند تفسير القول الكريم « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ، لا إله إلا هو ، سبحانه عما يشركون » هذه الفائدة :

« قال أبو عبيدة : الأحبار الفقهاء ، واختلفوا فى واحده فبعضهم يقول حبر ، وقال الأصمعى : لا أدرى أهو الحبر أو الحبر ، وكان أبو الهيثم يقول واحد الأحبار حبر بالفتح لا غير ، وينكر الكسر ، وكان الليث وابن السكيت يقولان : حبر وحبر للعالم ذمياً كان أو مسلماً بعد أن يكون من أهل الكتاب » .

وفى آمالى الإمام القالى ج ٣ ص ١٤٢ :

« إبراهيم بن عثمان العذرى وكان ينزل الكوفة قال: رأيت عمرو بن ميسرة وكان كهيئة الخيال ، كأنه صبغ بالورس ، لا يكاد يكلم أحداً ولا يجالسه ، وكانوا يرون أنه عاشق ، فكانوا يسألونه عن علته فيقول :

يسائلنى ذو اللب عن طول علتى ... وما أنا بالمبدى لذى اللب علتى
سأكتمها صبراً على حر جمرها ... وأسترها إذ كان فى الستر راحتى
صبرت على دائى احتساباً ورغبة ... ولم آلُ أحدوثات أهلى وخلتى

فما أظهر أمره ، ولا علم أحد بقصته حتى حضره الموت ، فقال : إن العلة التى كانت بى من أجل فلانة ابنة عمى ، والله ما حجبنى عنها ، وألزمنى الضر إلا خوف الله (عز وجل) لا غير ، فمن بلى فى هذه الدنيا بشىء فلا يكن أحد أوثق بسره من نفسه ، ولولا أن الموت نازل بى الساعة ماحدثتكم ، فاقرئوها منى السلام ، ومات من ساعته .

وأختتم هذه الأسطر بالثناء على أدب الأستاذ القلهود وشكره على حسن ظنه بهذا الضعيف وسؤال حضرته للاستفادة من فضلها عن هذه الفاء فى جواب الشرط فى هذه الجملة : « وإنها إن أقنعت أمثالى من المقلدين فلم تقنع أمثال السيرافى وابن هشام من زعماء النحو المجتهدين » وعن معنى هذه الجملة : « فياحبذا لو أن الأستاذ أعاد الكرة واستظهر دواوين العرب ورسائلهم فربما يعثر فيها على شواهد أخرى » وعن ورود مثل هذا التركيب (فياحبذا لو أن الأمر كذا وكذا) فى كلام قديم أو مولد متقدم أو متأخر .

قد ذكرتنى (حبذا) بقول هذا الشاعر :

يا حبذا جبل الريان من جبل ... وحبذا ساكن الريان من كانا

محمد إسعاف النشاشيبي

إلى الأستاذ على الطنطاوى :

أشكر لك أيها الكاتب الألمعى ماوجهته إلى من لطيف كلماتك، وأرانى مضطراً إلى أن أرجع إلى أسلوب الأستاذ الخولى — وإن كان المقال الثالث عند صاحب الرسالة وأظنه ينشر فى هذا العدد — أعود إلى أسلوبه لتعلم أنت وليعلم قراء « الرسالة » أنى ماتجنيت، وما كان لى أن أتجنى ، بل حرصت الحرص كله على توخى الأمانة والدقة فلم أزد حرفا على كلماته ، وإنما نقلتها بنصها وفصها كما يقولون .

وإذا كنت تستبعد أن يتوهم الأستاذ أن الله سبحانه وتعالى قال لمحمد صلى الله عليه وسلم (يا أخى) فاعلم أن الله — فى لسان الشيخ — قال لعيسى عليه السلام (يا سيدى) وإليك نص عباراته (ماقلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم) هذه الآية وما قبلها وما بعدها تدور على شكل حوار خيالى بين عيسى وبين الله سبحانه وتعالى . المقصود بهذا الكلام من يعتقدون بألوهية المسيح وكأن المسألة هكذا : أنتم تعتقدون أن المسيح إله وتعبدونه فمن أمركم بذلك ؟ هذا هو عيسى . أأنت قلت للناس إنك إله ؟ ! أبداً أنا لم أقل لهم ذلك . طيب قولهم يا سيدى إياك ينكسفوا) .

ولعل أهون من ذلك شرحه لكلام سيدنا أبى بكر بعد وفاة رسول الله ، وما كان من قراءته آية (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) قال الأستاذ (وكأن أبوبكر يريد أن يقول : ياسى عمر الدنيا بخير ، والأمانة لاتزال فى أعناق الموجودين ومحمد يموت زيه زى غيره) .

ولعل مما يؤسف ويمض ألا يخلو فصل من هذه المذكرات من عبارة أو عبارات عامية ركيكة كأن من الحتم لإفهام طلاب الجامعة اللجوء إلى اللغة العامية ، وإنى لأعرف أن إدارة الأزهر حظرت على المدرسين إلقاء الدروس باللغة العامية ، وما زال التفتيش فى الأزهر يعد هذا من أقبح عيوب الدرس .

على أنى — ياصاحب القلم الفاضل — أطلعتك وأطلعت قراء « الرسالة » على عامية مبكية لأنها تتصل بكتاب الله وأحب أن أطلعك على عامية مضحكة ، يقول الأستاذ ممهداً للكلام فى الفصل والوصل : « تقول للخادم مثلا خد تعريفه ، وهات بنكلة شقة عيش وبمليم كرات وبمليم سلطة قوطة وبمليم طعمية بل أكثر من هذا تعد له على أصابعك ليفهم هذه الأشياء ، وإن كنت حدق (بريد حدق يعنى متنبهاً) تقول هات العيش الأول لأنه حايقابل بتاع العيش أول ما يخرج وبعدين تحود على شمالك تلاقى بتاع الطعمية هات منه بمليم سلطة ، وبمليم طعمية ، وهكذا تسرد الحوادث ، وتشير إليها فى كلامك فمن الجائز أن تراعى القرابات والمناسبات إذا كان حدق . فإذا كان بتاع الكرات فريح (يريد بجانب) بتاع الطعمية يقوم يذكره بعده على طول علشان الواد ما ينساش ... وهكذا » .

وإنى لأعتذر إلى صاحب « الرسالة » من نشر مثل هذه التفاهات فى مجلته ، غير أن الانتصاف للغتنا العربية يدعونا إلى ذلك .

وليس شيئاً — كما أشرت إلى ذلك فى مقالى السابق — أن يأمر الأستاذ طلبته عند المراجعة أن يمروا بالقلم على بعض هذا فأننا نعيب عليه أولا أن تدرس البلاغة العربية بهذا الأسلوب وثانياً أن يدون مثل هذا فى مذكرات ، ومعروف أن طلبة الجامعة يدونون مذكراتهم مما يلقفونه من أفواه أساتذتهم .

* * *

أما عن ظرف الفقهاء ، فإنى قد ذكرت حينذاك أننى إنما أذكر نماذج ولا أريد الاستقصاء ، والحق أن الاستقصاء يحتاج إلى زمن طويل وإلى مجهود قد لا تسمح به شواغل الدرس ، وحسبك أن تقرأ كتابى الأغانى ونفح الطيب لترى فيهما كل طريفة مستحبة من ملح علمائنا وفقهائنا ، وربما استطاع الكاتب أن يتحدث عن أشخاص من الفضلاء الذين شهروا بالظرف فأبى السائب المخزومى وابن أبى عتيق ، أما أن يستقصى هذا الفصل فى العربية ، فذلك شأو بعيد . وإلى الأستاذ تحياتى

على العمارى

مدرس بالأزهر

محطة

الشرق الأدنى للاذاعة العربية

تذيع على أربع موجات قصيرة طولها

٢٥ ر ٤٤ و ٦٢ ر ٤٨ و ٩ ر ٤٨ و ٣٦ ر ٩٠ متراً

خمس مسابقات أدبية جديدة :

يسر محطة الشرق الأدنى للاذاعة العربية أن تعلن افتتاحها باب المسابقات الأدبية الجديدة التي ستفصل فيها لجان مؤلفة من كبار رجال الأدب في العالم العربي .

وستكون هذه المسابقات شهرية تتناول في كل شهر ابتداء من نوفمبر موضوعاً خاصاً ، وذلك حسب الترتيب التالي : — مسابقة الأحاديث — مسابقة القصة — مسابقة الزجل — مسابقة الشعر — مسابقة الترجمة

شروط مسابقة الأحاديث :

أولا : مواضيع الأحاديث المتسابقة — تقتصر الأحاديث على معالجة المواضيع الخمسة التالية : الأدب ، الاجتماع ، الثقافة ، الفنون والعلوم .

ثانياً : أن يكون الحديث قد كتب خصيصاً لهذه المسابقة ، وإلا يكون مقتبساً عن أية مجلة أو كتاب ، أو أية مخطوطة أخرى أو مترجما ، أو سبق أن نشر أو أذيع .

ثالثاً : أن يستوعب الحديث مالا يقل عن صفحتين عاديتين (فولسكاب) مطبوعتين على الآلة الكاتبة ، وإلا يزيد على ثلاث صفحات .

رابعاً : موعد إذاعة النتائج : آخر موعد لقبول الأحاديث المتسابقة في العاشر من شهر نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٩٤٦ . أي إن الحديث إذا وصلنا في العاشر من الشهر المذكور فسندرجه في مسابقة هذا الشهر (نوفمبر) ، وإن جاء متأخراً عن التاريخ المذكور أدرجناه في مسابقة الأحاديث التالية .

خامساً : تختار المحطة لجنة خاصة للفصل في الأحاديث المتسابقة ، واختيار ثلاثة أحاديث فائزة .

سادساً : الجوائز : خمسة عشر جنيها فلسطينيا جائزة الحديث الفائز الأول . وعشرة جنيهات فلسطينية جائزة الحديث الفائز الثاني وخمسة جنيهات جائزة الحديث الفائز الثالث .

سابعاً : تعقد لجنة التحكيم جلستها أمام الميكرفون ، وتذيع النتيجة التي توصلت إليها يوم الجمعة ٢٩ نوفمبر (تشرين ثاني) سنة ١٩٤٦ الساعة ٦٫٠٠ مساء حسب توقيت فلسطين .

شروط مسابقة القصة :

أولا : موضوع القصة مطلق . ولكن يشترط أن تكون القصة نفسها قد كتبت خصيصاً للاذاعة وإن لا تكون مترجمة أو مقتبسة أو منشورة من قبل .

ثانياً . تبقى القصة ملكا للاذاعة مدة ثلاثة أشهر من تاريخ إعلان نتيجة المسابقة ، وبعد ذلك ، يحق لصاحبها التصرف بها .

ثالثاً : يجب أن لا تزيد القصة على أربع صفحات عادية حجم (فولسكاب) وإن لا تقل عن ثلاثة .

رابعاً : ترسل القصة مطبوعة على أربع نسخ على أن لا يذكر الكاتب إسمه على إحدى هذه النسخ ، بل يرفق إسمه وعنوانه مكتوبين على ورقة منفصلة .

خامساً : تقبل القصص حتى اليوم الخامس والعشرين من نوفمبر ١٩٤٦ وكل قصة تصل بعد ٢٥ نوفمبر ١٩٤٦ تؤجل للمسابقة التالية .

سادساً : ترسل القصص إلى « محطة الشرق الأدنى للاذاعة العربية » يافا — فلسطين برسم « مسابقة القصة » .

سابعاً : تعلن اللجنة القصص الفائزة في جلسة مذاعة يوم الجمعة ٢٧ / ١٢ / ١٩٤٦ الساعة ٦٫٠٠ مساء حسب توقيت فلسطين .

ثامناً : ينال الفائز الأول جائزة مالية قدرها ثلاثون جنيهاً فلسطينياً والثاني ينال جائزة مالية قدرها خمسة عشر جنيهاً فلسطينياً والثالث ينال جائزة مالية قدرها عشرة جنيهات فلسطينية .

تاسعاً : ترسل الجوائز على أثر إذاعة النتائج .

شروط مسابقة الزجل :

أولا : يجب أن تعالج المقطوعة أحد المواضيع الأربعة التالية : —

١ — الراديو ٢ — الريف ٣ — القنبلة الذرية

٤ — نهضة المرأة فى الشرق .

ثانياً : أن لا يقل عدد الأبيات عن خمسة وعشرين بيتاً ، ولا يزيد على أربعين بيتاً .

ثالثاً : أن ترسل المقطوعة مطبوعة على أربع نسخ وإن لا يذكر الناظم إسمه على هذه النسخ بل يرفق إسمه وعنوانه مكتوبين على ورقة منفصلة

رابعاً : تقبل أزجال هذه المسابقة حتى اليوم الخامس والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٩٤٦ .

خامساً : ترسل الأزجال إلى محطة الشرق الأدنى للاذاعة العربية — يافا فلسطين — برسم مسابقة الزجل .

سادساً : تعلن اللجنة الأزجال الفائزة فى جلسة مذاعة يوم الجمعة ٣١ يناير سنة ١٩٤٧ .

سابعاً تحكم فى هذه المسابقة لجنتان واحدة للزجل المصرى والثانية للزجل اللبنانى والسورى وما كان قريباً منه .

ثامناً : توزع الجوائز كما يلى :

الجائزة الأولى ثلاثون جنيهاً فلسطينياً وتقسم إلى جائزتين متساويتين كل منهما خمسة عشر جنيهاً فلسطينياً تعطى الواحدة للفائز الأول فى نوع الزجل المصرى ، وتعطى الثانية للفائز الأول فى نوع الزجل اللبنانى أو السورى أو ما كان قريباً منه .

الجائزة الثانية خمسة عشر جنيهاً فلسطينياً وتقسم أيضاً إلى جائزتين متساويتين كل منهما سبعة جنيهات ونصف الجنيه الفلسطينى ، تعطى الواحدة للفائز الثانى فى نوع الزجل المصرى وتعطى الثانية للفائز الثانى فى نوع الزجل اللبنانى أو السورى أو ما كان قريباً منه .

الجائزة الثالثة عشرة جنيهات فلسطينية وتقسم إلى جائزتين متساويتين أيضاً ، كل منهما خمسة جنيهات فلسطينية تدفع أحداها للفائز الثالث فى نوع الزجل المصرى والأخرى تدفع للفائز الثالث فى نوع الزجل اللبنانى أو السورى أوما كان قريباً منه

تاسعاً : ترسل الجوائز على أثر إذاعة النتائج .

عاشراً : يحق للمحطة أن تلحن وتذيع ما تشاء من الأزجال الفائزة من دون مقابل .

أحد عشر : تبقى الأزجال الفائزة ملكا للاذاعة مدة ثلاثة أشهر من تاريخ إعلان نتائج المسابقة ، وبعد ذلك يحق لاصحابها التصرف بها .

إثنا عشر : ستقام مسابقة أخرى يعلن عنها فيما بعد لنوع الزجل العراقى الحجازى أو ما كان قريباً منه .

شروط مسابقة الشعر :

أولا : يجب أن تعالج القصيدة أحد المواضع الأربعة الآتية :

١ — نهضة الشرق العربى ٢ — ملهمتى ٣ — اليتيم

٤ — الطبيعة الغاضبة .

ثانياً : أن لا يقل عدد أبيات القصيدة عن خمسة وعشرون بيتاً ولا تزيد على أربعين بيتاً .

ثالثاً : أن ترسل القصيدة مطبوعة على أربع نسخ وإن لا يذكر اسم الناظم على هذه النسخ بل يرفق اسمه وعنوانه كاملين مكتوبين على ورقة منفصلة .

رابعاً : تقبل قصائد هذه المسابقة حتى اليوم الخامس والعشرين من شهر يناير سنة ١٩٤٧ .

خامساً : ترسل القصائد إلى محطة الشرق الأدنى للاذاعة العربية — يافا — فلسطين ، باسم مسابقة الشعر .

سادساً : تعلن اللجنة القصائد الفائزة فى جلسة مذاعة يوم الجمعة ٢٨ فبراير سنة ١٩٤٧ .

سابعاً : توزع الجوائز كما يلى : —

الجائزة الأولى ٣٠ « ثلاثون جنيهاً فلسطينياً » .

الجائزة الثانية ١٥ « خمسة عشر جنيهاً فلسطينياً » .

الجائزة الثالثة ١٠ « عشرة جنيهات فلسطينية » .

ثامناً : ترسل الجوائز على أثر إذاعة النتائج .

تاسعاً : يحق للمحطة أن تلحن وتذيع ما تشاء من القصائد الفائزة من دون مقابل

عاشراً : تبقى القصائد الفائزة ملكا للاذاعة مدة ثلاثة أشهر

من تاريخ إعلان نتائج المسابقة ، وبعد ذلك يحق لأصحابها التصرف بها .

شروط مسابقة الترجمة :

أولا : يجب أن تكون القطعة المترجمة نثرية إما من الأدب الإنجليزي أو من الأدب الأفرنسي ، وأن تكون من أدب القرن التاسع عشر ، أو أدب القرن العشرين .

ثانياً : يذكر إسم المؤلف والمرجع الذى أخذ منه المترجم ، ترسل نسخة مطبوعة من الأصل المترجم عنه .

ثالثاً : يجب أن لا تزيد الترجمة العربية على ألف وخمسماية كلمة وإن لا تقل عن ستماية كلمة .

رابعاً : ترسل المقطوعة مطبوعة على أربع نسخ على أن لا يذكر المترجم إسمه على هذه النسخ بل يرفق إسمه وعنوانه مكتوبين على ورقة منفصلة .

خامساً : تبقى القطعة المترجمة ملكا للاذاعة مدة ثلاثة أشهر من تاريخ إعلان نتائج المسابقة ، وبعد ذلك يحق لصاحبها التصرف بها .

سادساً : تقبل القطع المترجمة حتى اليوم الخامس والعشرين من شهر فبراير سنة ١٩٤٧ .

سابعاً : ترسل هذه القطع المترجمة إلى محطة الشرق الأدنى للاذاعة العربية — يافا — فلسطين ، باسم مسابقة الترجمة .

ثامناً : تعلن اللجنة القطع الفائزة بالترجمة ، فى جلسة مذاعة يوم الجمعة ٢٨ مارس « آذار » سنة ١٩٤٧ .

تاسعاً : توزع الجوائز كما يلى :

للفائز الأول ٣٠ « ثلاثون جنيهاً فلسطينياً » .

للفائز الثانى ١٥ « خمسة عشرة جنيهاً فلسطينياً » .

للفائز الثالث ١٠ « عشرة جنيهات فلسطينية » .

عاشراً : توزع الجوائز على أثر إذاعة النتائج .

ملاحظة هامة — لا يجوز للمشترك أن يشترك بأكثر من قطعة واحدة أو موضوع واحد فى المسابقة الواحدة .